الفصل الرابع

المدارس الاجتماعية فى أمريكا

عندما استقرت الأوضاع فى أمريكا بعد الحروب الأهلية وقامت الجامعات أنشأت هذه الجامعات كراسى لأستاذية علم الاجتماع وشجعت المشتغلين بمسائله . لأن الأمور السياسية والاقتصادية والعمرانية كانت تتطور فيها بسرعة فائقة وكانت الحاجة ماسة إلى تنظيم علمى وعملى فى شئون الحياة الاجتماعية بالإجمال . وقد استعار مفكرو أمريكا فى بادئ الأمر أصول نظرياتهم من المدارس الأوربية المعروفة مثل مدارس « كونت ودوركايم وسيمل وسبنسر »وأضفوا عليها بعض خصائص الحياة الأمريكية . واختاروا من نظريات الغرب ما يتفق وظروفهم وما يساعدهم على حل المشاكل التى تواجههم . وكانوا دائماً يحاولون أن يعالجوا الموضوعات فى ضوء مشاكلهم الخاصة ووفق نزعتهم المعروفة فى تفضيل العمل المنتج السريع على النظر العقيم حتى استطاعوا أن يؤقلموا العلم ويكسبوه شخصية مميزة .

ولعلهم وجدوا القدر النظرى الكافى فى بحوث الغرب فكفاهم هذا القدر مؤونة إعادة الجدل النظرى من جديد حول المسائل الفلسفية المتعلقة بأصول النظم والكشف عن طبيعتها ومراحل تطورها والمشكلات النظرية المتصلة بمقومات الحياة الاجتماعية ومبلغ خضوعها للدراسة الوضعية العلمية . ولعلهم لاحظوا كذلك أن الجدل النظرى الذى أثير بصدد المشاكل المشار إليها لم يقدم لشعوب أوربا أية فائدة مرجوة . فقد انشغل العلماء زهاء قرنين بالمساجلات الفلسفية المتعلقة بشئون الاجتماع وتركوا الصعوبات والمشكلات التى تواجه الشعوب والجماعات والأفراد بدون حلول مريحة وموفقة . فكأنهم لم يقدموا لشعوبهم ومواطنيهم أية خدمة فى ميدان الإصلاح الاجتماعى فى وقت كانت هذه الشعوب فى مساس الحاجة إلى توجيه الزعماء وقادة الرأى وكبار المفكرين والعلماء . لمس علماء الاجتماع فى أمريكا هذا النقص الذى بدا فى حركة أوربا العلمية والفلسفية فلم يتورطوا فيه وآثروا

الاتجاه إلى البحث العملى فى ميدان التجارب أو فى الحقل الاجتماعى . لأن النزول إلى الميدان يكشف للباحث عن المشاكل والأمراض التى تتطلب العلاج السريع . فمعظم هؤلاء العلماء فهموا علم الاجتماع بمعنى علم الإصلاح الاجتماعى أو علم الطب الاجتماعى وهو علم وقائى وعلاجى فى الوقت ذاته . وحتى علماء الصف الأول الذين تشبهوا بفلاسفة أوربا وعاودوا البحث فى الأصول الفلسفية والنظرية لحقائق الاجتماع لم يلجأوا إلى ذلك حبًّا فى البحث النظرى المجرد لذاته ولكنهم كانوا يريدون الانتفاع بما ينتهون إليه من حقائق فى أعمال التنسيق والتنظيم الاجتماعى وأعمال الرعاية والإنعاش والخدمات الاجتماعية ومحاولة الارتقاء بالأوضاع والنظم القائمة . أى أن أغراضهم كانت أغراضاً عملية تطبيقية قبل كل شىء وأرادوا أن يمهدوا لها بقدر يذكر من الدراسة النظرية التحليلية . وعلى العموم لم يحدد علماء الاجتماع فى أمريكا شيئاً يعتد به فى الناحية النظرية ، ولم يتركوا تراثاً علميًّا يبلغ ما بلغته النظريات الأوربية من العمق والتركيز والترسيب .

هذا ، وقد حمل لواء الحركة الاجتماعية فى مستهل قيامها علماء يعتبرون من الرعيل الأول فى أمريكا أجدرهم بالذكر : العلامة «لستر وارد «L. Ward» الذى اعتبر علم الاجتماع علم العلوم «Scientia Scientiarum» وهو فى هذا الصدد ينقل فكرة أوجست كونت الذى ذهب إلى أن قيام علم الاجتماع يحقق وحدة المعرفة الوضعية وهو العلم الذى يتزعم العلوم الإنسانية لأنها جميعاً تمده وتغذيه وتؤدى إليه بالضرورة . وتأثر هذا المفكر الأمريكى بأفكار المدرسة الفرنسية (دوركايم) فقد اعتبر المجتمع قوة روحية خالقة «Sociogenétique» تخلق القيم الأخلاقية والعقلية والمعايير الجمالية وتصطلح على الأوضاع والظواهر التى تسود حياة المجتمع .

ومن أوائل رواد الاجتماع العلامة سمول «Small» الذى كان رئيساً لقسم الدراسات الاجتماعية فى جامعة شيكاغو . اهتم بدراسة مظاهر التطور والتغير الاجتماعى . بيد أنه لم يدرس هذا التطور فى ضوء المبادئ والتصورات الفلسفية كما فعل أوجست كونت أو أصحاب فلسفة التاريخ فى ألمانيا ولكنه درس هذه الظاهرة موضوعيًّا وتتبع ما طرأ على العلاقات والظواهر الاجتماعية من تغيرات وتحولات واتخذ مدينة شيكاغو حقلا لدراسته وميداناً لملاحظاته واستقراءاته . غير أنه أرجع القوى المؤثرة فى هذا التطور إلى المحركات النفسية والرغبات الفردية ووضع فى هذا الصدد نظريته المعروفة بنظرية الميول الستة .

«Sixfold interests» وهى حب الصحة والجمال والثروة والألفة والعلم والأخلاق . وهذا يدلنا على مبلغ تأثر هذا الفكر بالاتجاه النفسى ومبلغ ما تورط فيه من الخلط بين حقائق الاجتماع ومطالب النفس الإنسانية .

ومن رجال هذا الطائفة العلامة « سمنر Sumner » الذى اهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية وتطورها وحاول أن يخضعها لقوانين . ونحا فى دراسته الناحية التطبيقية ولم يدرسها فى صورها المجردة كما لجأت إلى ذلك المدرسة الألمانية . ووضع نظريته فى تصنيف المجتمعات حيث قسمها إلى جماعات داخلية وأخرى خارجية وذلك على أساس تصنيفه للعلاقات والعمليات الاجتماعية . وأولى مزيد اهتمامه لدراسة العادات والعرف والتقاليد ومختلف مظاهر السلوك الجمعى «Folkways» ومعظم بحوث هذا العالم مستمدة من الملاحظة والتجربة ومن الميدان الاجتماعى . وقد أسبغ هذا الاتجاه على الدراسات الاجتماعية صفات خاصة حددت شخصية علم الاجتماع فى أمريكا . ويعتبر العلامة « جدنجز «Giddings» كذلك من المساهمين فى خلق علم الاجتماع الأمريكى فبحوثه ودراساته لا تخلو من أصالة وجدة رغم تأثره بكثير من علماء الغرب .

ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء علماء آخرون ساروا بالدراسات الاجتماعية نحو النضج والاكتمال والتخصص بعد أن اجتازت هذه الدراسات مرحلة النشأة والتكوين بفضل علماء الصف الأول . وأشهر رجال هذه الطائفة « زنانيكى ووليم توماس » اللذان وضعا بحثاً عن الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا ؛ والعالمان « بارك وبرجس » اللذان وضعا كتاباً عنوانه « مقدمة فى دراسة علم الاجتماع »[1] يعتبر أحسن ما كتب بشهادة كثير من النقاد المتخصصين . فقد عالج فيه المؤلفان موضوعات تتعلق بالصراع والتنافس والتمثيل الاجتماعى والسلوك الجمعى والشخصية الاجتماعية . ويجد فيه القارئ مادة غنية وملاحظات وإحصائيات أفادت ميدان البحث الاجتماعى . وبفضل هذا الكتاب وصل علم الاجتماع فى أمريكا إلى درجة كبيرة من النضج والاكتمال .

ولقد كان لانتشار النظم الفاشية والنازية والشيوعية فى أوربا وما فرضته هذه النظم من حجر على الحرية الفكرية ثم قيام الحرب العالمية الثانية ، أثر فى هجرة عدد كبير من علماء

(1) Park; Burgess; Introduction to the Study of Sociology.

الاجتماع البارزين من أوربا إلى أمريكا . وكان من الطبيعى أن تقوم حركة واسعة النطاق لنقل التراث الأوربى إلى أمريكا وترجمة الكتب المؤلفة بغير الإنجليزية حتى يستطيع المواطنون فى أمريكا الوقوف فى سهولة ويسر على نظريات الغرب ودراساته . وقد كانت كتب الاجتماع فى مقدمة التراث الأوربى الذى ترجم إلى الإنجليزية لأن المجتمع الأمريكى كان فى مساس الحاجة إلى هذا اللون من الدراسة والبحث . لأن الأمريكيين بطبيعتهم لا يميلون إلى الدراسات الفلسفية والميتافيزيكية بل يميلون إلى الدراسات المتصلة بشئون الحياة وخاصة الحياة الاجتماعية . هذا ، إلى أن ظروفهم الخاصة وتطور حياتهم بسرعة فائقة ألزمهم بضرورة دراسة المحركات الاجتماعية التى أدت بهم إلى ما استحدث من أوضاع . فساعد ذلك على نمو وتقدم الدراسات الاجتماعية العملية . ولعل الأمريكيين وجدوا فى البحوث الاجتماعية الغربية القدر النظرى الذى يكفيهم فى الدراسة والبحث وأرادوا أن يكملوا النقص الملحوظ فى الناحية العملية فوجهوا عنايتهم إليها . وكان فى مقدمة كتب الاجتماع التى ترجمت إلى الإنجليزية مؤلفات : كونت ودوركايم وتارد ولوبون من الفرنسيين ، وسيمل وتونيس وفوق فيزى وفونت من الألمان . وعن هذا الطريق استطاع علماء أمريكا أن يستفيدوا من هذه الحركة العلمية ويسهموا فيها ويسيروا بنظريات الغرب إلى مرحلة أكثر تطوراً ورقياً . وكان على رأس هذه الطائفة « بارك » من جامعة شيكاغو ، و « بارسون وسروكن » من جامعة هارفارد ، و « ماك ايفر » من جامعة كولومبيا .

وقد كان لضخامة الإمكانيات الأمريكية ومبلغ ما رصدته من مكافآت وإعانات دراسية ، أكبر الفضل فى زيادة الإقبال على خدمة الميدان الاجتماعى ، وفى إغراء المزيد من العلماء الأجانب للهجرة إلى أمريكا ، وفى استقبال طوائف من المشتغلين بمسائل علم الاجتماع أو من الراغبين فى الاستزادة من هذا الميدان . وقد ساهمت فى هذه المنح المالية الحكومة المركزية وحكومات الولايات والهيئات العامة والمؤسسات والأفراد[1] .

ولقد لعب « مجلس الأبحاث الاجتماعية » دوراً هاماً فى الإشراف على هذه البحوث والدراسات وتوجيهها ومساعدتها بوسائل متعددة . وكان أكبر أثر علمى لهذه المساعدات نشر دائرة معارف العلوم الاجتماعية والقاموس الاجتماعى للعلامة «Fairchild» وذلك

---

(١) كان العلامة أوجبرن Ogburn مشرفا على بعض هذه المنح وقامت مؤسسة «روكفلر الأمريكية» بدور كبير فى هذا الصدد . وهذا ما تؤديه الآن مشروعات النقطة الرابعة .

فضلا عن المنح والإعانات التى قدمت لأصحاب رسائل الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية وللقائمين بالعمل فى الميادين المحلية للإصلاح والخدمات الاجتماعية .

وأهم موضوعات الدراسة التى استأثرت بمزيد عناية علماء الاجتماع فى أمريكا فى الوقت الحاضر ما يأتى :

١ — دراسات تاريخية فى علم الاجتماع . وقد تقدم هذا النوع من البحث فى الثلاثين سنة الأخيرة . وكان فى طليعة القائمين به العلامة «Giddings» فى كتابه «Principles of Sociology» والعلامة «Sorokin» فى كتابه «Social and Cultural Dynamics» والعلامة هوارد بكر «H. Becker» فى بحوثه عن أسس الدراسة ومناهج البحث فى علم الاجتماع .

٢ — دراسات فى أثر العوامل الجغرافية والبيئية فى المجتمع . وكان القائمون بها تلاميذ مدرسة « راتزال » وأشهرهم :

Miss Ellen Churchill; Ellesworth Huntington; Russell Smith.

٣ — الدراسات الأكلوجية «Sociology of Ecology» وهى دراسات تتعلق بالبحث فى البيئة الاجتماعية . وقد تقدم هذا النوع من الدراسة فى الربع الأول من القرن العشرين وكان الدافع إليه سرعة نمو المدن الصناعية وزيادة المؤسسات وتعقد العلاقات الاجتماعية فيها وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية وتبعاً لزيادة عدد السكان . واهتم القائمون بهذه الدراسة بالمسائل المتصلة بالهجرة من الريف إلى المدن والتركز السكانى فى بعض المناطق والمسائل المتصلة بانتشار الجرائم ولا سيما جرائم الأحداث ، وانحلال الروابط الأسرية ، وانخفاض المعايير الأخلاقية ومستويات الذوق العام . وأشهر من كتب فى هذه الموضوعات العالمان «Mackenzie; James Quinn» .

٤ — دراسات أتنلوجية وأنثروبولوجية وبحوث فى أصول الثقافات ومدى انتشارها . وكان الدافع إلى هذه الدراسات زيادة تيارات الهجرة . فقد شهدت أمريكا ما لم تشهده قارة أخرى من حيث الهجرة الخارجية . وجه القائمون بهذه الدراسة عنايتهم إلى تحليل أصول الأجناس وكشف مهادها وتتبع تفرعها وانشعابها ودراسة نفسية الجماعات والعلاقات الاجتماعية التى تسودها . واهتم كثيرون من أنصار هذه المدرسة بدراسة العادات الشعبية

الدارجة والتقاليد ومظاهر العرف . ويطلقون على هذا المبحث «Folk Sociology» واهتم بعض المفكرين بدراسة «الجغرافية الإنسانية «Anthropogeographie» ومن أشهر أعلام هذه الدراسات العلماء :

Park; Burgess; Mckenzie; James; Quinn; Clifford.
Shaw; Milla Alihan; Nels Anderson.

٥ — مدرسة الاجتماع البيولوجي (المدرسة الحيوية) وتعتبر هذه المدرسة فرعاً من مدرسة سبنسر . واهتم بعض أنصار هذه المدرسة بعقد المقارنات بين المجتمع والكائن الحي بالطريقة التقليدية المعروفة عن هذه المدرسة . وأشهر هؤلاء «Reuter ; Fairchild» «Willcox; Wolfe; Thompson» واتجه بعض أنصار هذه المدرسة إلى دراسة المشكلة السكانية تحت تأثير العوامل البيولوجية وتأثروا إلى حد ما بالنزعة التشاؤمية التي سيطرت على بحوث مدرسة مالتس . واهتم العالمان «Hankins; Carl Kelsey» بدراسة أثر الوراثة في مشكلات المجتمع واهتم علماء كثيرون بدراسة مشاكل تحسين النسل «Davenport; Conklin; Gaddard; Hooton» وعنى بعض البيولوجيين بدراسة مشاكل الجنس ورواسب فكرة التفوق العنصري في مظاهر الحياة الاجتماعية . وأشهرهم .

«Boas; Coon; Dixon Hankins; Franz» ويكاد ينفرد « هانكنز » دون علماء الاجتماع الأمريكيين بالمجهودات العلمية التي بذلها للتقريب بين وجهة نظر البيولوجيين وبين علماء الاجتماع .

٦ — علم الاجتماع النفسي «Psycological Sociology» خدم هذا الميدان علماء كثيرون أشهرهم « Cooley; Ross; Giddings » واهتم المتأخرون من أنصار هذه المدرسة بتحليل العلاقات الاجتماعية في ضوء مبادئ وقوانين علم النفس وأشهر هؤلاء «Eliot; Ellwood; Bogardus» يحتل العالمان «Groves; Martin; Allport; Kimbalyoug» مركزاً ممتازاً بين علماء الاجتماع النفسي وتمتاز بحوثهما بالتقريب بين علمي النفس والاجتماع وتطبيق النظريات العلمية النفسية على المجتمع .

٧ — واهتمت طائفة من علماء الاجتماع في أمريكا بدراسة العمليات الثقافية وتطور النظم ونموها . وأشهر هؤلاء العلامة «Tozzer» من جامعة هارفارد ؛ والعالمان « توماس

وأجبرن «Thomas; Ogburn» وأتباعهما . ونضيف إلى أنصار هذه المدرسة بعض المتأثرين بفلسفة سمنر وبواس «Sumner; Boas» أمثال لبرت وكلر ولسلى «Lippert; Killer; Leslie»

٨ — مدرسة الاقتصاد الاجتماعى . وقد اهتم أنصارها بدراسة الناحية الاقتصادية وأثرها فى تنفيذ برامج الإنعاش الاجتماعى واهتموا كذلك بالنواحى الإصلاحية والارتقاء بأحوال الطبقات المادية وقاموا بتجارب تطبيقية فى الميدان الاجتماعى لإثارة إمكانيات الجماعات وقدراتها والانتفاع بالطاقة المادية الكامنة فيها . ولذلك يسمون أنفسهم « الاقتصاديين الاجتماعيين » « Social economists » وأحياناً أخرى اسم « الاجتماعين التجريبيين «Practical Sociologists» وأشهرهم «Jameso Ford; Deveine; Quene; Burgess; E. Abbott; R. Woods; Philip Klein; Mac Iver; Parsons; M. Schneider.

٩ — مدرسة الاجتماع الجنائى . وهو العلم الذى يدرس الجريمة فى نشأتها وتطورها ومقوماتها والظروف المهيئة لها ؛ وأثر الوراثة الفردية والاجتماعية فى زيادة موجاتها ويدرس عوامل الانحراف لدى الأحداث وكيفية القضاء عليها والوسائل الوقائية والعلاجية التى تتخذ حيالها . ويدرس كذلك التشريعات الجنائية ومبلغ أثرها فى تقويم الانحرافات ويدرس الطرق التى تتبع فى مراقبة المنحرفين ومحاكمتهم ونظم السجون وما ينبغى أن تكون عليه من النواحى الاجتماعية والسيكلوجية . وقد تقدمت هذه الدراسات فى أمريكا أخيراً بفضل بحوث مشاهير العلماء الآتى أسماؤهم :

Sutherland; Gillin; Parsons; W. Healy; Sanford Bates; Haynes; Blacke Maclver; Teeters; Shalloo; Waite; Reckless.

١٠ — بحوث فى الأسرة وعلم الاجتماع العائلى . فقد استأثرت ظواهر الزواج والطلاق والحقوق والواجبات الأسرية وانحلال الروابط الأسرية وتفكك العلاقات بين الأقارب بعناية الكثيرين لا سيما من أنصار مدرسة الاجتماع التجريبى وأشهر من كتب فى هذا الميدان :

Calhoun; Baberç Groves;
Caven; Reed; Zimmaraman; Elmer; G. Howard; Lichtenberger Burgess; Cottrell; W. Waller; Nimcoff; Mowrer; G. Hamilton.

١١ — دراسة اجتماعية للوحدات الإقليمية «Regionalism» وقد اهتم بها العلامة «Odum» وانتشر هذا النوع من الدراسة فى جامعات الولايات الجنوبية . وتتناول بحث

إقليم يمتاز بوحدته المورفولوجية وخصائصه الثقافية ونظمه الاجتماعية وسلوكه السياسى . وينظر أصحاب هذه المدرسة إلى « الوحدة » موضوع البحث باعتبارها « إقليما اجتماعيا أو بيئة اجتماعية «Zone ecologique» ليست لها حدود سياسية أو إدارية . فهى تتميز بظواهرها الاجتماعية وتياراتها الفكرية وما يسودها من الاتجاهات السوية أو الشاذة ومعاييرها فى الذوق والفن والأخلاق والرأى العام . ولا شك أن هذه الأمور وما إليها تتعدى حدود المدن والأقسام الإدارية أو الوحدات السياسية . وكما أن لهذه الأخيرة (عواصم إدارية) تعتبر مركزاً لنشاطها العمرانى والإدارى والسياسى ؛ فكذلك لكل مساحة اجتماعية أو (بيئة اجتماعية) عاصمة أو مركز لنشاط الظواهر والأنماط الاجتماعية سواء كانت هذه الظواهر سوية أو شاذة . ومن الملاحظ دائماً ؛ كما أثبت أصحاب هذه الدراسات ؛ أن هذه الانحرافات تأخذ فى الضعف والتراخى كلما بعدت عن مركز انتشارها أو عن البؤرة الاجتماعية «Social Core» التى تشع منها وتأخذ فى الانتشار .

١٢ — دراسة التغير الاجتماعى «Sociology of change» (وتعتبر هذه الدراسات شعبة من مباحث الديناميك سوسيال) واهتم القائمون بهذا البحث بدراسة المخترعات الحديثة وأثرها فى التغير الاجتماعى وتطوير الحياة الاجتماعية فى مختلف المجالات ؛ ودراسة ما طرأ على الحياة الاجتماعية من مظاهر التقدم والتحسن المطرد فى الأحوال المادية والمعنوية ؛ ودراسة ما لوحظ فى بعض المجتمعات أو الطبقات من معوقات تؤدى بها إلى التأخر الاجتماعى والثقافى بصفة خاصة «Culturallag» . وأقوى من كتب فى هذا المبحث العالمان أوجبرن «Ogburn» وسروكن «Sorokin»[1] .

١٣ — دراسات عملية تطبيقية فى الميدان الاجتماعى . وهذه الدراسات متأثرة فى بعض اتجاهاتها بفلسفة « البراجماتزم » وهى الفلسفة التى تفضل العمل على النظر . والعلماء الذين لمعت أسماؤهم فى هذا الميدان هم «John Dewey; Horton; Faris; Cooley» «George Mead» وقد اتسع نطاق هذه الدراسات العملية وحمل لواءها ؛ باحثون من رجال الصف الثانى واتجهوا إلى عمل مسوح اجتماعية لبيئات محدودة أو مدن معينة للوقوف على احتياجاتها الاجتماعية ومحاولة القضاء على الانحرافات غير السوية التى تنتشر فيها

(1) Ogburn: Social Change — Sorokin: Social and Cultural Dynamics.

نتيجة للتغير الاجتماعى السريع وتعقد العلاقات الاجتماعية بين مختلف الهيئات والطبقات. وكان ذلك نتيجة موجات الهجرة الخارجية التى كانت تترى على أمريكا والانتقال إلى التصنيع الثقيل وتركز السكان وتوطنهم حول مراكز الصناعة وحقول المواد الأولية التى اكتشفت . وهذه الدراسات على غرار المسوح الاجتماعية التى قامت بها مدرسة « أدنبره » بزعامة « جدز وبرانفورد وشارل بوث » وقد أشرت فيما سبق إلى أن الفضل يرجع إلى العلامة الإنجليزى « جدز » فى التنبيه إلى أهمية هذه الدراسات التطبيقية . ومن « برجه فى أدنبره » انتقلت هذه الدراسات إلى أمريكا عن طريق تلميذه « شارل زبان » وهو من مواطنى مدينة شيكاغو . اتجهت هذه الدراسة فى بعض النواحى إلى الوقوف على أثر القوميات والأقليات الأثنلوجية فى الحياة الأمريكية بصفة عامة وفى المجالات الاقتصادية بصفة خاصة . ومن هذا القبيل ما قام به العلامة « زنانيكى «Znanieki» فى دراساته عن الفلاح البولندى وأثره فى اقتصاديات الولايات الجنوبية .

١٠ – مدرسة الاجتماع الثقافى « Sociology of culture » كثرت فى البحوث المتأخرة استعمالات غير دقيقة للمصطلح الإنجليزى «Cultural lag» . غير أن العلامة « أوجبرن » يضفى على هذا المصطلح مفهوماً خاصًّا فيقول : إن الظواهر الثقافية لا تتغير بدرجة واحدة ولا بسرعة واحدة ، وأن بعضها فى مظاهره الحركية قد يتخلف . فمثلا نجد أن الأنماط الصناعية قد تغيرت بيد أنها فى هذا التطوير كانت أيسرع من تطور الأنماط التربوية والجمالية . ولما كانت الحياة الاجتماعية تتطلب توحداً فى المواقف والاتجاهات وتجانساً فى القيم ؛ وتوافقاً ضروريًّا بين مختلف الأنماط الاجتماعية ؛ فمن هنا نشأت الحاجة إلى ضرورة دراسة الميدان الثقافى دراسة علمية والوقوف على القوانين التى تحكمه . وقد أتاحت هذه الدراسة الفرصة لقيام فرع جديد فى نطاق علم الاجتماع العام وهو علم الاجتماع الثقافى . ويجدر بنا أن نشير إلى أن العلامة الأمريكى «Théodore Adél» بذل قصارى جهده فى تدعيم هذا المبحث ولخص الموضوعات التى تدخل فى نطاقه على النحو الآتى :

(ا) الثقافة هى التعبير الفنى الدقيق « للتراث الاجتماعى » ولذلك فهى ليست وليدة فرد وليست من ابتكار العقل الخالص ، إنها حقيقة جمعية .

(ب) يمكن التعبير عن مختلف مظاهر السلوك الإنسانى بمصطلحات ثقافية وبذلك يتسع نطاق مباحث علم الاجتماع الثقافى .

(ح) لا يقتصر مفهوم الثقافة على النواحى المعنوية ، بل تشمل كذلك الأمور المادية . أى أنه لا يضع حداً فاصلا بين مظاهر حضارية وأخرى ثقافية فهذه وتلك تحدد الإطار العام لعلم الاجتماع الثقافى .

١٥ – دراسات اجتماعية فى الحروب واقتصادياتها . وذلك من حيث نشأتها ودوافعها وأسبابها الكامنة فى طبيعة المجتمعات والنظريات التى قيلت بصددها . ثم دراسة اقتصادياتها وكيفية الانتقال بالمجتمعات من الإنتاج المدنى إلى الإنتاج الحربى وبالعكس . وهذه الدراسة فى مجموعها على غرار الدراسات التى يقوم بها العلامة الإنجليزى « رامنى «Jay Rumney» .

أشهر علماء الاجتماع فى أمريكا

لا بأس من أن نعرف القارئ بطائفة من علماء الرعيل الأول الذين خدموا ميدان علم الاجتماع وأسهموا فى إقامة دعائمه ؛ وأنشأوا أقساماً له فى الجامعات الأمريكية وأجدر هؤلاء بالذكر العلماء : استكنبرج ؛ سمنر ؛ لستر وارد ، سمول ، ماك ايفر .

١ – استكنبرج Stuckenberg :

لم يسهم العلامة « استكنبرج » فى الوظائف الجامعية ؛ ولذلك ظل مجهولا لدى الأوساط الأكاديمية إلى حين . ولد فى هانوفر (ألمانيا) عام ١٨٣٥ وتوفى بأمريكا عام ١٩٠٣ . قدم إلى أمريكا وهو شاب حيث تلقى دراساته الأولى ؛ ثم عاد إلى ألمانيا ليستكمل دراساته ويتخصص . وعمل هناك أستاذاً للفلسفة وظل حتى ١٨٩٤ . وقبل أن يغادر ألمانيا جمع أصول كتابه « علم الاجتماع عند المسيحيين «Christian sociology» وهو أول من كتب كتابة علمية منظمة عن النظريات الاجتماعية المسيحية . وقد طبع هذا الكتاب فى الولايات المتحدة حيث عكف على ترسيب أفكاره وتعميقها والتخصص فى ميدان

علم الاجتماع . وقد ظهر كل ذلك واضحاً فى إنتاجه العلمى الذى نشره بعد ذلك وأهم كتبه :

1. The Social Problem (1897).
2. Introduction to the Study of Sociology (1898).
3. Sociology; The Science of Human Society (1903).

درس فى كتابه الأول بعض النظريات الاجتماعية المسيحية وعاد إلى مناقشة طائفة من الآراء التى عالجها فى كتابه عن علم الاجتماع المسيحى . ولذلك يعتبر هذا الكتاب هو خلاصة الفلسفة الاجتماعية التى ينبغى أن يسير عليها كل مجتمع مسيحى .

وفى كتابه « المقدمة » ؛ درس المقدمات الضرورية لعلم الاجتماع : من حيث نشأته والدعائم التى يرتكز عليها وميادين دراساته ومناهج البحث فيه . أما كتابه الثالث « علم الاجتماع » فهو أوسع كتبه وأدقها وأكثرها تفصيلا ؛ نشره عام وفاته وجاء فى مجلدين . عالج فيهما موضوعات على جانب من الأهمية وركز اهتمامه على دراسة القوى الاجتماعية المؤثرة فى التطور ؛ ومراحل التطور الاجتماعى فى مختلف الميادين الاقتصادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية ؛ وتطور المثل والقيم الاجتماعية ؛ وتطور أساليب وطرق الوصول إليها وتحققها فى واقع الأمر . ولذلك كانت بحوث الاجتماع الأخلاقى هى أهم البحوث التى يدور حولها كتابه وخصوصاً الجزء الثانى .

ويمكننا أن نقول إن البحث فى كتابه الكبير يدور حول ثلاثة موضوعات أساسية وهى :

طبيعة المجتمع وخصائصه الموروثة ؛ ومدى ظهور هذه الطبيعة الموروثة فى عمليات التطور والارتقاء الاجتماعى ؛ ثم المجتمع كما ينبغى أن يكون[1] .

وبالرغم من غموض بعض آراء هذا المفكر ؛ فإننا نجد فى ثنايا دراساته ما يمكننا أن نسميه حقًّا « بعلم المجتمع » .

ونلخص فيما يلى بعض أفكاره التى تهمنا فى دراساتنا .

ويتكلم « استكنبرج » بشىء من الأصالة عن مفهوم « الجمعية «Sociation»

(1) Stuckenberg; Sociology : The Science of Human Society (II; p. 292).

وذلك لتوضيح العلاقة بين الفرد والمجتمع . وهى نقطة أساسية فى دراسة علم الاجتماع ومحاولة إبراز شخصية العلم وأهليته بالاستقلال . وقارن بين المصطلح المشار إليه وبين كلمة «Association» التى لا تدل فى نظره إلا على الاتحاد المادى . ولما كان المجتمع لا يتكون من أفراد بوصفهم أفراداً ؛ ولكنه يتكون منهم فى حالة الاجتماع ، كأن مفهوم « الحياة الجمعية «Sociation» أدق بكثير من أى مفهوم آخر يستعمل لوصف « حالة الاجتماع » . وفى هذا الصدد يقول ما معناه أنه يستعمل هذا المصطلح لتعيين القوى التى تعمل بالتبادل بين مشاعر الأفراد وتدعوهم إلى الحياة الجمعية وتجمع بين أحاسيسهم وضروراتهم وأفكارهم والمشاركات الوجدانية التى تسودهم ومن هنا تبدو أصالة الحياة الاجتماعية وتظهر طبيعة المجتمع الجوهرية التى تختلف عن طبائع أفراده[1] .

وبعد أن يقرر « استكنبرج » أهلية علم الاجتماع بالنشأة والاستقلال يبحث فى العلاقة التى تربطه بالعلوم الاجتماعية الجزئية ويقرر فى هذا الصدد أن علم الاجتماع علم عام ضرورى وأولى «à Priori» وليس علماً تركيبياً «Sythésis» أو مجموعة من العلوم الاجتماعية الخاصة . إنه العلم الأساسى والجوهرى الذى يضع القواعد المنطقية والدعائم الفلسفية والنظرية التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية الجزئية . فهو العلم العام تنشعب منه هذه العلوم ؛ وهو الجنس وهى الأنواع التى تندرج تحته ؛ وهو الجزع وهى الفروع التى تنشعب منه[2] . والعلاقة بينه وبينها شبيهة بالعلاقة بين العلم فى ذاته والعلوم الأخرى وبين الفلسفة من حيث هى ومختلف الفلسفات ؛ وبين التاريخ ومختلف فروعه وأزمنته ؛ وبين اللغة فى ذاتها ومختلف اللغات ؛ وبين الأدب وفروع الآداب ؛ وبين الفن ومختلف مظاهر الفنون . أى أنها علاقة تربط بين الكل من حيث هو وبين الأجزاء التى تنطوى تحته .

ثم يوجه عنايته إلى تحديد ميدان العلم . ويقارن فى هذا الصدد بين مباحثه والمباحث الأخرى التى قد تختلط به وخاصة مباحث علم السياسة . ويقرر فى هذا الصدد أن ميدان علم الاجتماع هو دراسة كل مظاهر الاجتماعات الإنسانية[3] . ودراسة تجمعات الأفراد وهم فى التفاعلات النفسية المتبادلة وما يترتب على هذه العمليات من آثار معقدة . أما علم السياسة فموضوعه « الدولة » من حيث نشأتها وتكوينها وتنظيماتها الداخلية والوظائف

(1) Stuckenberg : Introduction to the Study of Sociology, p. 27.

(2) «It is the Genus of which they are the Species; the trunk on which they are the branches.» Introd to the Study of Soc.

(3) «Every Kind of Human Association».

التى تؤديها ؛ والعلاقات القائمة فيها سواء بين الحكام والمحكومين أو بينهم وبينها بوصفها شخصية معنوية . ويدرس كذلك نظم الحكم وأشكاله وتطور مظاهره والدساتير والأحزاب والتشريعات وظواهر الوعى القومى وما عدا ذلك من الظواهر السياسية المعروفة . بيد أن دراسة الدولة ليست مقصورة على علم السياسة ؛ إذ أن علم الاجتماع يدرسها كذلك من حيث إنها مظهر من مظاهر الاجتماع الإنسانى . أى أنه يدرسها من وجهة نظر خاصة تختلف إلى حد كبير عن وجهة نظر علم السياسة . بمعنى أنه فى دراسته للدولة لا يركز اهتمامه على دراسة التنظيمات الداخلية والشئون الدستورية والتشريعية ؛ ولكنه يدرس علاقة الدولة بالمجتمع بصفة عامة ومنزلتها فى التطور الاجتماعى ؛ والوظيفة الاجتماعية التى تؤديها ؛ وأثرها العام على الاجتماع الإنسانى . أى أنه يدرس الدولة بوصفها « حقيقة اجتماعية » فى حين أن علم السياسة يعالجها بوصفها « ظاهرة سياسية »[1] ولا أدل على ذلك من أنه يعتبر « السيادة السياسية » هى جوهر الدولة والدعامة الأولى التى ترسى عليها قواعدها . فالدولة فى نظره هى « السلطة فى المجتمع » سواء كانت هذه السلطة مركزة فى يد فرد ، أو فى مجموعة مختارة . أو يمارسها المجتمع ككل . وهى نمو تاريخى وثمرة تطور سياسى شاق تمتد جذوره إلى روابط القرابة والدم . ويقرر أن هذا التطور السياسى قد مر بمراحل ثلاثة هى على التتابع :

١ — المرحلة قبل السياسية وكانت قائمة على روابط القرابة والدم .

The consanguine: The pre political.

٢ — المرحلة السياسية أو القومية وتقوم على الحريات والقانون والوعى الجماعى .

The political or national period.

٣ — المرحلة الدولية وترتكز على القانون الدولى «The International»

وإذا تركنا جانباً تفصيلات الموضوعات التى عالجها هذا المفكر ، ونظرنا إلى الغايات البعيدة التى كان يرمى إليها ؛ نجد أن الغرض الفذ الذى كان ينشده هو إصلاح المعتل من شئون المجتمع ، والقضاء على كثير من المشكلات الاجتماعية التى عاصرته ؛ ووضع التخطيط الأمثل لنظام اجتماعى عادل . ولذلك فإن نظرياته الاجتماعية هى فى الحقيقة برنامج فى الأخلاق الاجتماعية . وقد خصص لها معظم أجزاء مجلده الثانى من كتاب

(1) Stuckenberg; Sociology, II. p. 6 Sqq.

« علم الاجتماع » وقرر بصورة واضحة أن تحليله للأخلاق الاجتماعية هو أهم أجزاء بحثه وفيه تبدو أصالته العلمية .

وقد جاء هذا التحليل عملا فذًّا وجهداً علميًّا رائعاً . بدأه بنقد الأصول الميتافيزيقية للأخلاق ونقد آراء الفلاسفة القدامى والمحدثين وتسفيه آراء البيولوجيين والتطوريين . وينتهى إلى دراسة الأخلاق بوصفها ظواهر اجتماعية ، تنبع من طبيعة المجتمع وتتطور وفقًا لتطور معاييره وقيمه . فليس ثمة مبادئ أخلاقية مطلقة ومستقلة عن الزمان والمكان والطبيعة الإنسانية وليس ثمة مبادىء أخلاقية مقدسة فى ذاتها . ولكنها ثمرة التجربة الاجتماعية وتعبير واضح لمثل المجتمع وقيمه ومظاهر سلوك أفراده وهيئاته ولذلك فهى خاضعة للقوى الاجتماعية وقوانين التطور الاجتماعى . ومن ثم فإن المنهج السليم لدراسة الأخلاق الاجتماعية ، لا بد أن يرتكز على دراسة عوامل التقدم الاجتماعى ومبلغ فاعليتها فى طبيعة الإنسان وطبيعة الظواهر الاجتماعية وسير التطور الاجتماعى . ولا بد أن يؤدى بنا هذا المنهج إلى « تحديد طبيعة المثال الاجتماعى وإمكان تحقيق هذا المثال » وفى ضوء هذا الاعتبار ، فإنه فى إمكان علم الاجتماع أن يرسم أفضل نظام اجتماعى صالح لحياة الفرد والجماعة . وفى إمكانه كذلك أن يعد الفرد لحياة مثمرة متفاعلة مع البيئات الاجتماعية المحيطة به . ويكون ذلك بفضل التربية الاجتماعية الصحيحة وتحقيق التكيف والتمثيل بين الفرد ونظم المجتمع .

وعلى الدولة أن تعين علماء الاجتماع على تحقيق التنظيم والتقدم الاجتماعى نحو المثل المنشودة ، عليها أن تلعب الدور الهام بوصفها العامل الفعال أو العنصر الموجه ، وبوصفها صاحبة المسئولية ولديها من الإمكانيات ما تستطيع بفضله تحقيق الأهداف المنشودة . فعالم الاجتماع هو الذى يستطيع أن يقرر ما هو صالح وصائب ، وعلى الدولة أن تنفذ وتروض إرادة الشعب على قبوله . ويجب ألا يحمل الشعب على الإذعان بالقوة ، لأن القوة يصح أن تطغى على الحقوق والحريـــات المصونة بيد أن تدخل الدولة أمر ضرورى لا مفر منه ، لأن الخير الأسمى هو إصـــلاح المجتمع وتحقيق كماله .

٢ — سمنر W. G. Sumner :

ولد العلامة « وليم جراهام سمنر » عام ١٨٤٠ وتوفى عام ١٩١٠ ؛ وهو من علماء

الرعيل الأول فى أمريكا الذين تفخر بهم جامعة «ييل Yale» وكان صاحب مدرسة وتتلمذ على يديه الآلاف من رواد الدراسات الاجتماعية فى الولايات المتحدة . بدأ حياته واعظا دينيًّا ، بيد أنه سرعان ما غير اتجاهه وترك الدراسات المتصلة بالتيولوجيا ووجه عنايته إلى دراسة السياسة والاقتصاد وشئون الاجتماع . ولذلك يمكننا أن نقرأ بقايا رواسب اتجاهه الأول فى كثير من أجزاء بحوثه . ولعل بحثه الذى عنوانه « موقف الطبقات الاجتماعية إزاء بعضها البعض » صدى لهذا الاتجاه الأول [1] .

وتبدو طريقته الجدلية اللاهوتية واضحة إلى حد كبير فى كتابه الرئيسى «الأساليب الشعبية «Folkways» وقد جمع « سمنر » إلى قوة الحجة ووضوح البيان فى مباحث الدين ، التعمق والأصالة وسعة الأفق فى معالجة شئون المجتمع . وجاءت مقالاته وكتاباته نموذجاً رفيعاً لفن النثر والكتابة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لا سيما أن أسلوبه كان أنيق العبارة موجز الفكرة شديد التماسك . وهذه الخصائص رفعته فوق المستوى الذى وصل إليه معاصروه . وشبه كثير من النقاد تعاليمه بوصايا الزعيم الأمريكى « جفرسون » الذى لقبه مواطنوه بسقراط أمريكا .

وبالرغم من المركز الذى شغله «سمنر» فى علم الاجتماع الأمريكى ؛ غير أن اتجاهه الأول الذى أشرنا إليه ، كان مركب النقص أو نقطة الضعف فى أهميته الأكاديمية . ولذلك انقسم معاصروه بصدد الحكم عليه إلى طائفتين : طائفة يتزعمها العلامة «Small» وترى أن مركز سمنر فى تطور وتقدم علم الاجتماع ولا سيما فى أمريكا غير واضح ، وجهده غير محدد . وهذا الاتجاه يفسر لنا موجة الغضب الذى تملكت العلامة سمول حين اختير « سمنر » عام ١٩٠٧ رئيساً للجمعية الاجتماعية الأمريكية «Am. Soc. Society» والطائفة الثانية يتزعمها العلامة «Keller» وترى أن سمنر كان مبتكراً ومجتهداً فى كثير من الاعتبارات وكان أستاذاً فى المنهج .

ويبدو أن وضعه كأستاذ فى الجامعات هو الذى خلع عليه هذه الأهلية الأكاديمية ؛ أى أن سمعته الأكاديمية ومنزلته العلمية فى ميادين السياسة والاقتصاد يمكن أن ترد بكل بساطة إلى قوة المركز العلمى الذى كان يشغله . فقد أضفى عليه هذا المركز الشىء الكثير

(1) Sumner; What Social Classes owe to each other !

أو على الأقل أظهره لجمهرة المثقفين . ولذلك نراه يفخر دائما بمنزلته الجامعية الأكاديمية ويدعى التفوق على زملائه وينسب لنفسه الفضل فى إدخال علم الاجتماع ضمن المناهج الجامعية .

ويؤخذ على العلامة « سمنر » أنه لم ينشر فى فجر استقلال العلم مؤلفات منهجية فى دعائم العلم وحقائقه وموضوعاته ، ولم يسهم فى المساجلات الفلسفية التى أثيرت حول نشأته وأهليته بالاستقلال . كما فعل علماء آخرون معاصرون له فى مختلف البلاد الناهضة فى مجالات العلم والفلسفة أمثال هربرت سبنسر وإميل دوركايم وجورج سيمل وجبرائيل تارد وحتى كتابه الشهير « الشعبيات أو الأساليب الشعبية لم ينشر إلا بعد وفاته بثلاثة أعوام . لهذه الاعتبارات «Folkways» وما إليها قد يبدو للذين لا يعرفون سمنر فى بحوثه ولا يعيشون معه فى أفكاره ، أن يتشككوا فى وضعه بين قائمة الرعيل الأول من علماء الاجتماع .

هـــذا ولم تظهر عظمة بحوث سمنر إلا بعـــد أن نشر تلميذه كلر «Keller» معظم ما قام به من دراسات فى كتاب كبير يقع فى أربعة أجزاء عنوانه « علم المجتمع » «The Science of Society» وذلك فى عامى ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

وعلى العموم ، فإن موقف سمنر فى الاجتماع الأمريكى يتلخص فى أنه أول مدرس للاجتماع فى الدولة من حيث الزمن والقدرات العلمية . ويعتبر كتابه «Folkways» أروع كتاب فى موضوعه لأنه يعالج ميداناً هاماً من ميادين الاجتماع . وتمتاز كتاباته الأخرى بأنها موسوعة للحقائق الوصفية والمادية أكثر من كونها عرضا نظريا مجرداً . ويبدو أنه كان جماعا أكثر منه محللا وناقداً .

وإلى القارئ أهم المسائل التى عالجها .

أولاً — آراؤه فى أصل الإنسان :

بذل العلماء منذ أكثر من قرن جهوداً علمية للكشف على أصل الإنسان ونشأته الاجتماعية الأولى والقوى المحركة لتصرفاته سواء كانت هذه القوى مجمعة مثل التعاون والإخاء أو قوى منفرة مثل الصراع والعداء . واشترك فى هذه الجهود كثير من علماء الأنثربولوجيا

والاتنجرافيا والجيولوجيا والآثار . ووصل هؤلاء فى دراساتهم إلى طائفة من القضايا والمبادئ العامة بيد أنها فى حاجة إلى كثير من التحقيق العلمى ولذلك فهى أقرب إلى الفروض منها إلى النظريات .

انتفع العلامة « سمنر » بهذه المادة وعالج الموضوع فى ضوء ما وصل إليه من حقائق . فذهب إلى أن هناك شبه إجماع بين علماء الأنثربولوجيا على أن الإنسان انحدر من فصيلة حيوانية راقية وهو فى نشأته وانحداره يمثل عملية تطورية بطيئة. ولعل فى خضوع الإنسان لقوانين الوراثة الحيوانية ما يؤيد هذا الترابط . والعلامة « سمنر » فى هذا الصدد تلميذ أصيل لتعاليم دارون وسبنسر . بيد أنه يضيف إلى الحقيقة السابقة أن الإنسان ولو أنه انحدر من فصيلة حيوانية راقية ، غير أنه يمتلك قدراً من الخصائص والمقومات الروحية التى لا توجد أصلا فى الحيوانات الراقية . وبذلك يتعين أن يكون للإنسان طبيعة جديدة مغايرة للطبيعة الحيوانية . وهذا التحفظ يقر به إلى حد كبير من أنصار النظرية الاجتماعية .

ويعرض « سمنر » النظريتين الشهيرتين فى الأنثروبولوجيا وهما : النظرية القائلة بأصل واحد للجنس الإنسانى «Monogenetic» والنظرية القائلة بأصول متعددة «Polygenetic origin» ويناقشهما ويتساءل : إذا كانت الإنسانية ترجع إلى جنس واحد وأصل مشترك ، فهل تنطوى طبيعة الرجل الأفريقى على كل الاستعدادات والقدرات التى تنطوى عليها طبيعة وعقلية الرجل القوقازى ؟ وهل كانت الإنسانية فى فجر قيامها جنساً واحداً وينطوى الأفراد على خصائص متماثلة ثم حدث أن خضعت الفصائل الإنسانية لظروف مختلفة جعلتهم يتفاضلون كيفياً ؟ ويجيب على هذا التساؤل بأن ثمة صراعاً بين علماء الاتنجرافيا والبيئة والوراثة حول هذا الموضوع ونجد أن كل فريق جمع قدراً من الحقائق التى تؤيد وجهة نظره بحيث يستحيل علينا أن نجزم برأى فى الموضوع . ويذهب فى هذا الصدد إلى أن الحقائق الانثروبولوجية تتلاقى فى نقطة أساسية وهى أن هناك ثلاثة أجناس رئيسية وهى : الجنس القوقازى والمغولى والأسود[1] وقد تفرعت هذه الأجناس إلى فروع كثيرة ومجموعات عنصرية تصل حسب أحدث الإحصائيات إلى ٦٠٠ مجموعة . وهذه المجموعات تمثل انصهاراً لا مثيل له عاصر البشرية منذ نشأتها فلا يمكن والحالة هذه تمييز أحد عناصر هذه المركبات الكيمائية أو وضع حدود فاصلة بين جنس وآخر . وعلى

(1) Caucasoid; Mongoloid; Negroid.

هذا النحو فالحديث عن الجنس النقى الخالص أو الجنس الأمثل حديث خرافة . ولذلك يجب استبعاد فكرة شعب الله المختار أو فكرة الجنس السامى لأن هذه الفكرة أدت إلى الحروب وإلى التمييز العنصرى الذى لا تزال تعانى وطأته بعض الأقليات العنصرية فى أرقى الأمم حضارة .

ويرى « سمنر » أن هناك عوامل كثيرة خففت من حدة الفكرة العنصرية والتعصب لمبدأ الجنس . من ذلك التزاوج بين الأجناس المتشابهة فى خصائصها والمتقاربة فى أوصافها وسماتها . فقد أدت هذه العملية إلى اختلاط الدماء ومن ثم اختفت الأفكار التى كانت تثار حول « نقاوة الدم » ومبلغ ارتباط هذه النقاوة بالحرص على مقومات الحضارة . والتجربة خير شاهد على ذلك . فالملاحظ أن أقوى الشعوب فى الوقت الحاضر هى الشعوب التى اختلطت فيها دماء الأجناس عن طريق الاختلاط والتزاوج[1] .

وقد اتسع نطاق هذه العملية فشملت الأجناس المختلفة . وتدلنا الإحصائيات على أن الارتباطات الزوجية بين السود والبيض والصفر فى نمو متزايد كما يحدث ذلك على نطاق واسع فى جنوب أفريقية وفى البرازيل وفى الفلبين . وقد كان لهذا النمو أكبر الفضل فى القضاء على كثير من مساوئ التعصب العنصرى وأهمها :

١ — القضاء على الامتيازات العنصرية ومظاهر الاضطهاد التى كانت ترتكب باسم الجنس .

٢ — القضاء على عملية الإفناء التى كانت تقوم بها الفصائل البيضاء ضد الأجناس السوداء والصفراء .

٣ — القضاء على مظاهر الاحتكار التى زاولتها الأجناس البيضاء ضد الأجناس الأخرى مثل نظم الرق والسخرة والإجارة وما إليها من مظاهر الاستغلال التى كانت وليدة الفكرة العنصرية .

٤ — ضعف فكرة السيادة التى طالما أصرت الفصائل البيضاء على ممارستها ضد الشعوب المستضعفة جنسيًا .

٥ — ونتج عن ذلك تضييق نطاق الاستعمار وتصفيته فى معظم البلاد المستعمرة .

---

(1) Bogardus; The Development of Social thought, p. 326.

بيد أن بعض الكتاب الاستعماريين لا ينظرون إلى ظاهرة التزاوج بعين الرضى والارتياح . وينعون عليها بأنها ستؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى انتصار الجنس الأحط وإفناء الجنس الأرقى . لأن ارتباطات التزاوج تتم عادة ، فى ظروف اجتماعية غير طبيعية وسرعان ما يعتريها عدم التوافق والانسجام نظراً لغموض الميول واختلاف الأنماط الثقافية والتراث الاجتماعى وعدم التكافؤ من حيث القدرات والاستعدادات العقلية . فتكون النتيجة هى سرعة نمو وزيادة الحالات الباثولوجية التى تؤدى إلى مركب النقص العنصرى . وهى ظاهرة خطيرة إذا استشرت فى مجتمع أتت على مقوماته .

وغنى عن البيان أن هذه الأفكار هى التى تحدد حالات الصراع بين الأجناس وتجعل تحقيق السلام فى ظل وحدة عنصرية عزيز المنال . ولا شك أن علماء الأنثروبولوجيا والأتنجرافيا مسئولون مسئولية مباشرة عما وصلت إليه الاضطرابات العنصرية . فقد نشروا مؤلفات كثيرة بعضها مغرض لا يخدم الأغراض العلمية الفذة ، والبعض الآخر مشحون بطائفة لا حصر لها من الحقائق المتصلة بأصول اللغات والأديان والحرف . بيد أن معظم هذه الحقائق معروض بطريقة قد تكون مضللة ومرتكزة على فهم غير واضح للمبادئ السيكولوجية والاجتماعية التى تنطوى عليها .

والشعوب نفسها مسئولة كذلك عن تحديد الدور الذى يلعبه « الجنس » فى تاريخها الاجتماعى وأنماطها وأوضاعها الاجتماعية . فقد أجرمت فى هذا الصدد جرماً كبيراً ، فكل جنس يعتقد فى نفسه أنه مركز الإنسانية وأصلها ، ويحكم على باقى الأجناس بالضعف والتحقير . وهذه النعرة تدفعه إلى المبالغة فى أهمية أصله وعاداته وتقاليده وتراثه القومى وتسفيه تراث الشعوب الأخرى . فمثلا كان اليونان والرومان يسمون من عداهم بالبرابرة وحكموا على شعوب الشرق أحكاماً قاسية . واعتبر اليهود أنفسهم فى عصر ما شعب الله المختار ، ووصفوا اليونان والرومان بالوثنية والإلحاد ، والجنس الجرمانى يعتقد أنه أسمى الأجناس وهو الجدير بحمل مشعل الحضارة وما عداه أجناس منحطة ومستضعفة .

هذه هى مجمل الآراء التى ناقشها سمنر فى بحوثه الاتنجرافية .

ثانياً — آراؤه فى العادات والتقاليد :

عالج سمنر هذا الموضوع فى كتابه « الشعبيات أو الأساليب الشعبية « Folkways »[(١)] ويعتبر هذا الكتاب دراسة اجتماعية تحليلية لأهمية العادات والعرف والتقاليد وتناول فيه تفسير أصل وطبيعة ووظيفة هذه العناصر المختلفة لمقومات التراث الاجتماعى ثم محاولة الارتقاء ببعض العادات الهامة المميزة للجماعة .

وتتلخص نظريته فى أن الإنسان وهو ذلك الكائن المحكوم والمسيّر فى طريق مرسوم محدد بمقتضى الغرائز التى ورثها عن طبيعة أسلافه الحيوانية ، وبمقتضى قدراته الطبيعية والنفسية المميزة بين اللذة والألم والخير والشر والصواب والخطأ ، أمكنه أن يكون بالتدريج عن طريق الخطأ تارة والمحاولة طريقة أخرى ببعض قوالب وأساليب للسلوك الفردى والجماعى ، وجد بالتجربة أنها تؤدى إلى انتصاره فى معركة الحياة وفى غمرة تنازع البقاء والصراع فى سبيل تأكيد الوجود الاجتماعى .

وقد تكونت هذه المجموعة الكبيرة من العادات الجماعية والأساليب الشعبية العامة أولا على هامش الشعور وبطريقة تلقائية عادية«Usual» ثم اكتسبت بمرور الزمن وعن طريق المداومة والاستمرار قوة عظيمة وأثر بالغ وضغط كبير أصبحت تمارسه تحت ستار قوة الدين والجزاء الإلهى وضغط الرأى العام وأحكام العادة والتطبع .

وعندما تتأصل هذه الأساليب الشعبية فى الذات وتصل إلى مستوى المشاعر والأحاسيس وتصبح فى ذاتها فكراً وتعبيراً عن فلسفة الجماعة ومرتبطة بالناحية العقيدية وبمبلغ تقدمها وتطورها ، تنتقل إلى ما نسميه العرف «Mores» . وعندما ترتكز على سلطة الجماعة وتمارس نشاطها وقوتها فى ضوء هذا الاعتبار ، ترتقى إلى مرتبة « المعايير والقيم » وتصبح القوة الرئيسية التى عن طريقها تتم عملية الانتخاب المجتمعى «Societal Selection» . وهذه هى أسمى مراتب الضبط الاجتماعى لأنها أصبحت مقياساً أو حكماً على ما هو صواب أو خطأ من مظاهر السلوك والعمل والتفكير . فقوالب العرف على هذا النحو ، مزودة بقوة جبر وإلزام وهى مستعدة لكى تعود بين الحين والحين من عالم التجريد إلى عالم الفعل لتصدر أوامرها وتوجيهاتها ووصاياها ، ولتكتسب صفة التجديد والبعث ولتكون فى حاضر مستمر . إنها تقابل الفرد فى طفولته الأولى فتطبع عقله ومشاعره على معتقدات

---

(1) Usages; Manners; Customs; Mores; Morals; Traditions.

خاصة وأفكار وأذواق معينة ، وتقوده فى مختلف مراحل نموه وتقدم له نموذجاً كاملا لما ينبغى أن يكون عليه المواطن فى أسرته وعشيرته ومجتمعه . فإذا انصاع لها واقتنع أصابه نجاح اجتماعى ، وإذا قاوم وتبرم ، فإن المجتمع يلفظه ويسحقه بالأقدام .

وغنى عن البيان أن القوة التى تمارسها قوالب العرف ، مستمدة من قوتها الجمعية ومن كونها أصبحت أداة « للاختيار الاجتماعى » .

وبالرغم من هذه القوة ، فإن حدودها حدود تسامح لأنها تقبل التطوير . بيد أن ذلك لا يكون إلا فى أضيق الحدود . ولا أدل على ذلك من أن الفرد المثقف لا يستطيع أن يجرد نفسه من تأثير هذه الأفكار السابقة ، ولا يقدر أن يضع نفسه فى موقف حيادى مستقل عما تفرضه هذه القوالب الاجتماعية . لأنه يعتقد أنه غريم فى محاولاته . ومثل الفرد فى هذا الصدد كمثل من يحاول أن يتخلص من أثر الجاذبية أو قوة الضغط الجوى وهو يعلم أنه لن يملك من ذلك فكاكاً .

وفى ضوء هذا الاعتبار ، لا تعتبر « القوى الأخلاقية » قوى مطلقة وتعسفية ، ولكنها نسبية ومحلية ، وهى تمثل نبعاً ذاتياً وفيضاً من التكوين الطبيعى والعاطفى والاجتماعى لبيئة محلية معينة .

ولا يفوت « سمنر » وهو يدرس « أساليب العوام » أن يدرس مبلغ تأثرها بالاكتشافات والمخترعات العظيمة ورد الفعل الذى أحدثته هذه الأمور فى تكوين المركب الجمعى وفى اتجاهاته وأساليبه وأوضاعه فى التفكير والعمل . فالأفراد يتأثرون بمختلف المظاهر الثقافية والحضارية ولا سيما النواحى المادية ويخضعون لها وبذلك أسهمت هذه العوامل فى صنع المجتمع وخلق الأفراد .

وتطرق « سمنر » فى دراساته لطائفة من الموضوعات الاجتماعية مثل نظام الطبقات والتنظيم والتنسيق الاجتماعى ومظاهر الانحلال الأخلاق وقد أعجبنى ما انتهى إليه من دراساته لأساليب العوام وأخلاق الشعب حيث نقل قضية العالم وسترمارك وهى « أن المجتمع هو مهد الشعور الأخلاق » .

«Society is the Birth Place of moral consciousness»

ثالثاً — آراؤه السياسية :

لم ينشر سمنر مؤلفات أصيلة فى البحث السياسى بالرغم من أنه كان أستاذاً لعلم السياسة . وقد جاءت شهرته فى ميدان النظريات السياسية والاجتماعية من قيامه بدراسة

بعض نظم الحكم . ويبدو أنه كان من أنصار نظام الحرية أو سياسة الباب المفتوح فى شئون السياسة والاقتصاد . غير أنه كان يندد بما تنتهى إليه هذه السياسة فى نهاية مطافها حيث تصل إلى الاحتكارية والإمبراطورية فكثيراً ما هاجم هذه الانحرافات لا سيما النظام الإمبراطورى من حيث قيامه على الاستبداد السياسى وارتكازه على نظرية الحق الإلهى المقدس .

وإذا أردنا أن نلقى نظرة كلية على فكره السياسى ، نجد أنه تأثر فى هذا الصدد بدراساته الاجتماعية الميدانية . فمثلا نراه لا يرجع إلى التصورات المطلقة والمبادئ الكلية المجردة فى بحثه لأصل الدولة كما فعل فيلسوف مثل هيجل ولكنه وضع تصورات واقعية وعملية . فقد اعتبر الدولة شخصاً أخلاقياً «Ethical Person» فالدولة ليست إلا مجموع ذواتنا «All of us» أنها فى حقيقتها عدد من الأفراد اجتمعوا فى ظروف غامضة وبطريق المصادفة وأمكنهم بفضل الأغلبية أن يضعوا من الأنظمة ما يحقق خدمات هذا الكل .

وعندما يتكلم عن أشكال الحكم المختلفة نجده لا يقرر أفضلية شكل منها بصفة مطلقة . فهو فى هذا الاعتبار ، شبيه بالعلامة منتسكيو الذى قرر مبدأ النسبية فى تقييم النظم السياسية . وعلق ذلك على مبلغ رضاء الشعب عن مصيره . فهذا الرضاء هو مقياس مشروعية السلطة لأن الشعب هو الذى يقرأ فى نظام الحكم صورة لدرجة نموه السياسى وحساسيته القومية والوعى الذى قطعه فى هذا الطريق . والحق أن أفضل حكومة هو دائماً أكثر أشكال الحكم تكيفاً بالشروط الاجتماعية والاقتصادية والعقلية التى تحكم الشعب المحكوم .

وبالرغم من تقرير هذه القضايا الحيادية ، فإنه يمتدح نظام الحكم فى الولايات المتحدة ويرى فيه النظام الأمثل . فكأنه من أنصار الحكومة الجمهورية الدستورية القائمة على أساس التصويت والتمثيل النيابى . ويقول بصددها إنها أصدق أشكال الحكم وأكثرها اتقاناً وأبرها بتنفيذ الوعود والعهود التى تقطعها على نفسها . إنها فى نظره ، حكومة الذات لأن كل فرد يقرأ فى طبيعة تكوينها صورة لحرياته المدنية والسياسية ولأنه يشارك فيها بمبلغ إسهامه فى توجيه الرأى العام .

وقارن « سمنر » بين الديمقراطية والجمهورية . فالأولى ترتكز على مبدأين هما : تحقيق المساواة ، وتحقيق مشاركة المواطنين مشاركة فعلية مباشرة فى كل عمل حكومى . أما الثانية فترتكز على تحقيق الحريات المدنية . وقرر أن الديمقراطية خاطئة فى مبدأيها .

بيد أن تحليله لحقيقة الديمقراطية يشعرنا بأنه اقتصر على تصور الديموقراطيات المدنية القديمة التى سادت بلاد اليونان ولا ينطبق بعمق على النظم الديموقراطية الحديثة .

رابعاً – نظريته فى القيم الاجتماعية :

قبل أن يتكلم عن القيم «Values» ، يمهد لذلك بدراسة تحليلية للبواعث الأساسية التى تدفع بالإنسان إلى السلوك الجمعى . وقسم هذه البواعث إلى أربعة قوائم «Categories» وكل قائمة تعبر عن مجموعة حاجات ضرورية وغريزية تتطلب الإشباع وهى :

١ – الحاجة إلى إشباع الضروريات الطبيعية (المأكل ، المسكن ، الملبس) .

٢ – الحاجة إلى إشباع الغرائز الجنسية .

٣ – الحاجة إلى إشباع حب العظمة والاستعلاء والظهور .

٤ – الحاجة إلى التخلص من حالات الخوف والفزع التى تتربص بالإنسان الدوائر والتى لازمته منذ فجر حياته الأولى .

واعتبر « سمنر » هذه الدوافع هى القاعدة التى ترتكز عليها القوى الاجتماعية المنشطة لحياة الجماعة [1] .

ويرى أن الدوافع الطبيعية الأولى قد أدت إلى الإنتاج والعمل وجمع الثروات . وأدت الدوافع الجنسية إلى التنظيم الأسرى الذى كان أول دعامة من دعائم التنظيم الاجتماعى ، وأول النظم التى أرست المصطلحات والقوالب الاجتماعية وذلك مثل العادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك والمراسيم المتعلقة بالزواج والطلاق والحقوق والواجبات الأسرية ، وعدم المساواة بين الزوجين وسيادة الرجل ومركبات النقص عند المرأة .

وأدت غرائز الاستعلاء إلى حب الظهور والتعالى والغطرسة والتمييز الطبقى وسيادة التيارات المنفرة . ويرجع إلى هذه الأمور وما إليها أبعد الأثر فى نمو الأرستقراطية القديمة ونظم الإقطاع والانعزال المحلى لبعض الطبقات والامتيازات الطائفية والمذهبية والعنصرية والاجتماعية .

وأدت ظاهرة الخوف إلى عبادة الأرواح والشياطين والأجداد والأسلاف وأرواح الموتى

---

(1) Bogurdus; The Development of Social thought p. 329

ومن ثم نشأت العبادات والطقوس والاتجاه إلى فكرة تأليه بعض الكائنات وتقديسها ثم تأليه الرموز والأفكار وأخيراً قيام فكرة الدين المجرد .

ويستنتج « سمنر » من هذه الدراسة أربعة قيم يهدف إليها النشاط الاجتماعي وهي : القيم الطبيعية والاقتصادية والأخلاقية والعقلية . ويرى أن الوضع الاجتماعي لشعب من الشعوب إنما هو الوضع الذى يحدده الانسجام التام بين هذه الفضائل أو القيم الأربعة . وأن أفضل المواطنين فى المجتمع إنما هو ذلك الشخص الذى تجتمع فيه الفضائل المذكورة بنسب متعادلة وتبدو منسجمة فى تكامل أهدافها .

خامساً — نظريته فى الطبقات :

يقسم « سمنر » المجتمع إلى خمس طبقات وهى[1] :

١ — الطبقة الاجتماعية الوسطى «Social Mediocrity» وهى أهم طبقات المجتمع وعماد معاشه وقوامه .

٢ — الطبقة الطفيلية فى المجتمع (الطبقات المعولة فى المجتمع) وهى فضائل غير منتجة ومتثاقلة فى عملها وتعتبر عبء على المجتمع ، ولكنها ليست شريرة أو خطيرة .

ويدخل فى عدادها المرضى والمسنون والعجزة وأصحاب العاهات والشواذ ومن إليهم : «All dependent and defective classes» .

٣ — الطبقة المنحرفة «The delinquent Classes» وهى طبقة شاذة ضارة بوحدة المجتمع تؤدى إلى انحلال الروابط والعلاقات الاجتماعية .

٤ — طبقة أصحاب الذكاء والمهارة «People of Talent» والمثقفين ، وهى الطبقة التى تقوم بأهم الأعمال وتشغل معظم الوظائف فى المجتمع . ويتوقف عليها نشاطه وتطوره ومبلغ تقدمه .

٥ — طبقة العباقرة «Geniuses Classes» وهم أصحاب الاستعدادات والقدرات الذهنية والفنية الراقية . وقد يظن الكثيرون أنها أرقى طبقات المجتمع وأسماها كرامة وقدرة ، بيد أن أنصاف المثقفين المزودين بالخبرات والتجارب ، والعاكفين على أعمالهم بروح

(1) Summer; Folkways; pp. 40 — 63.

قومية وثابة ، أجدى على المجتمع وأكثر نفعاً لمواطنيهم من أولئك العباقرة الذين يدعون رفعة الشأن ونباهة الذكر مع أنهم مسرفون فى التفلسف والتخيل ويركبون متن الشطط فى الحكم والتقدير .

هذا ، وقد يبدو للكثيرين أيضاً أن طبقة العباقرة هى أهم طبقات المجتمع وأخطرها شأناً ، بيد أن هذا الزعم ليس له ما يبرره . فالرجل الصانع الماهر ، والرجل المثقف والمزود بالتجارب ، والوطنى الغيور وذوو المبادئ الأخلاقية القويمة ، كل هؤلاء أجدى وأنفع للمجتمع من الرجل العبقرى الذى يدعى نباهة الذكر والاستعلاء فوق المستوى الرفيع لمواطنيه . وقد يبدو للكثيرين كذلك أن الجماعات الشعبية هى أقل الطبقات شأناً وترسباً فى قاع المجتمع ، وهذا الزعم ليس له ما يبرره كذلك . فهى لب المجتمع وتحتل مركزه ، وهى حامية العرف والتقاليد ، وحافظة التراث الاجتماعى ، والمعين الذى لا ينضب للجنود المدافعين عن حياضه . إن أحقر أفراد الطبقة الشعبية هم الجهلة والمنحرفون والجانحون والمجرمون والمرضى والطفيليون .

سادساً — آراؤه فى نظم الأسرة :

يرى (سمنر) أن الطبيعة زودت الرجال والنساء بجاذبية كانت سبباً فى بقاء ودوام الجنس البشرى . وقد أدت هذه الجاذبية التلقائية إلى قيام النظم الزواجية . غير أن هناك عوامل أخرى تضافرت مع الجاذبية الطبيعية لخلق ظاهرة الزواج وأهمها غريزة حب البقاء ودوام الوجود الاجتماعى وحفظ النوع والتعاون على تحقيق مطالب واحتياجات الحياة .

وفرق (سمنر) بين الأسرة بصفة عامة أى العائلة ، وبين الأسرة الزواجية . فالأسرة بمعناها العام صورة مصغرة لحياة المجتمع ، إنها هيئة يرتبط أعضاؤها معاً فى المأكل والمسكن والعمل والخضوع لنظم معينة . وتمتاز هذه الهيئة بالتنسيق بين أفراد يختلفون فى اعتبارات كثيرة . أما الأسرة الزواجية فهى الوحدة الاجتماعية التى تقوم على أساس الرضى والقبول المتبادل بين رجل وامرأة وذلك للتعاون على تحقيق الضرورات المعيشية ولغرض إنجاب الأطفال والمعاشرة الصحيحة فى نطاق الإطار الاجتماعى طالما كان ارتباطهما قائماً ومستمراً . وقد رسمت له المجتمعات قيودا قد تكون فى بعضها شديدة ، وقد تكون فى البعض الآخر أقل شدة وذلك وفقاً للظروف الاجتماعية واستجابة لمصالح المشتركين .

ويذهب (سمنر) إلى أن النظام الأمى كان أسبق ظهوراً . وهو النظام الذى بمقتضاه يلحق الولد بنسب أمه . أى أن محور القرابة فى فجر الإنسانية كان يدور حول الأم وعصبيتها . لأن علاقة الأم بولدها واضحة ومحددة ، لأن الرجال كانوا يعيشون فى معظم الأوقات بعيدين عن نسائهم فى رحلات الصيد وجرياً وراء تحصيل الأقوات . ولما استقرت الحياة الاجتماعية إلى حد ما ، استطاع الرجل أن يصل إلى قمة العائلة بفضل ما حبته به الطبيعة من القوة . ومن ثم ظهر النظام الأبوى الذى بمقتضاه أصبح الأب محور القرابة وعصب الأسرة . فالأسرة الأبوية قائمة فى واقع الأمر على مقدرة الرجل فى الحكم والسيطرة أكثر من قيامها على رابطة الدم .

وتكلم سمنر فى مقومات الأسرة الحديثة من حيث الحرص على قوالب العرف والمعايير الأخلاقية والتربوية . وعرض لمظاهر انحلالها ، وناقش فكرة الطلاق وأسباب التوتر فى محيط الأسرة . ونعى على التربية الاجتماعية التى يتلقنها مواطنوه فى زمانه لأنها لا تعدهم للزواج ولا ترغبهم فى الحياة الزوجية السعيدة . ونادى بأن سياسة الباب المفتوح فى الطلاق ستؤدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية وفساد الحياة بالإجمال . وهذه السياسة أسوأ حالا من سياسة الإباحية فى العلاقات الزوجية ، ولذلك نراه يشدد النكير على دعاة التحرر فى شئون الأسرة (سواء فى الزواج أو الطلاق) وينادى بتدعيم الزواج الثنائى (نظام وحدانية الزوج والزوجة) ويصفه بأنه أشرف تجربة لإنكار الذات .

٣ – لستر وارد Lester Ward :

ولد « لستر وارد » فى مقاطعة «Illinois» عام ١٨٤١ وتلقى دراسات مدرسية محدودة وعمل وهو فى سن مبكرة فى مزرعة . غير أنه أظهر رغبة فى القراءة والدرس وأطلع على كثير من ثقافات عصره . ودخل خدمة الحكومة واستمر موظفاً قرابة أربعين عاماً . وبالرغم من مشقة العمل الحكومى ، كان يختلس من الوقت ما يكفيه للقراءة والكتابة والتحصيل . وتخصص فى علم الاجتماع فأجاد ووصل إلى قدر من الأصالة . وقد بدأت شهرته فى ميدان العلم عندما نشر عام ١٨٨٣ كتابه علم الاجتماع الديناميكى «Dynamic Sociology» وهو يعتبر باكورة عمله العلمى . أما آخر إنتاجه فهو كتابه « نظرات إلى الكون «Glimpses Of Cosmos» الذى نشره عام ١٩١٣ . وبين هذين الكتابين نشر مؤلفات كثيرة لها قيمتها العلمية أهمها :

الاجتماع الخالص (النظرى)	Pure Sociology
الاجتماع التطبيقى	Applied Sociology
العوامل السيكلوجية فى الحضارة	Psychi factors in Civilization

وفى عام ١٩٠٦ بدأ تجربته الأولى والأخيرة لتدريس علم الاجتماع فى الجامعات وكان وقتئذ فى الخامسة والستين . واستمر يحاضر أستاذاً للاجتماع فى جامعة «Brown»[1] قرابة سبعة أعوام حتى مماته عام ١٩١٣ . وقد ساعدته زوجته مساعدة مثمرة فى عمله الجامعى لا سيما فى أخريات أيامه كما تدلنا على ذلك الوثائق ومذكراته الخاصة وترجمات حياته التى نشرتها المجلات العلمية فى حينها . وبصورة عامة يمكننا أن نحكم على العلامة (وارد) بأنه يقف بين القديم والحديث وينسب إلى المدرسة الحديثة بقدر ما ينسب إلى المدرسة القديمة . فقد هضم وضعية كونت ، وصورية سيمل ، وعضوية سبنسر . وأخذ من هذه وتلك بعض مقومات نظرياته ، وأضاف إليها قدراً كبيراً من أصالته وعارض بعضها كما تبنى البعض الآخر ، كما سنرى ذلك من عرض آرائه وتحليلها ونقدها[2] .

أهم نظرياته الاجتماعية

أولا – أصل الحياة الاجتماعية وتطورها :

يرى وارد أن الحياة الإنسانية مرت فى ثلاث عصور هى على الترتيب : العصر الفردى ويمتاز بالحياة الانفرادية والانعزالية للأفراد . والعصر الجماعى ويمتاز بقيام الجماعات والقبائل ، والعصر القومى ويمتاز بقيام المدن والحكومات المدنية ونشأة القوميات والدول المستقلة .

ويشرح تاريخ هذه الحياة الاجتماعية على النحو الآتى :

يرى (وارد) أن الإنسان كائن غير اجتماعى «Antisocial» وأنانى محب لذاته «Completely Egoistic» وهو فى هذه القضية يتفق مع الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز ويختلف تماما مع جمهرة علماء الاجتماع الذين يرون أن الإنسان كائن اجتماعى

(1) Gurvitch; Moore : Twentieth Century Sociology (American Soc. pp. 356 — 542).

(2) Barnes; An Intro . to the History of Sociology.

بصفة تلقائية . ويرى فوق ذلك أن الإنسان عاش فى فجر الإنسانية عيشة انفرادية انعزالية ثم اضطرته ظروف الاجتماع أن يكون ترابطات وجماعات صغيرة . وكان الإنسان فى هذه الحقبة التاريخية محاطاً بالقوى الهدامة سواء كانت عضوية أم غير عضوية . فكان يعتقد أن هذه القوى تتربص به الدوائر وأنه من الناحية الفزيولوجية ضعيف لا حول له ولاقوة ولا يمتلك من الوسائل ما يحميه ضد قوى الشر : قوى الكون والطبيعة والحيوانات المتوحشة والأشرار من بنى جنسه .

وقد هداه تفكيره وأرشدته تجاربه أن يستعمل ذكاءه ليعوض هذا النقص الفزيولوجى والفيزيقى . واستطاع بفضل المهارة والذكاء أن يتقى هجمات الوحوش وثورة الطبيعة واستطاع أن يحيا ويحمى دراية واستعان بهم فى تحقيق مطالبه الأولى . ومن ثم أدرك أهمية الجماعة وانتقل من العصر الأول عصر الحياة الانفرادية والانعزالية «Autarchic» إلى العصر الثانى عصر حياة الجماعة وحب الاجتماع «Aggregate» وبفضل زيادة التجارب والمهارات واتساع المدارك ونطاق استخدام الذكاء ، ازدادت قدراته العقلية وقويت ملكاته وتفتق ذهنه عن ابتكارات ومستحدثات خدمت مطالبه الاجتماعية المتزايدة . وليس ثمة شك فى أن هذا التطور العقلى كان هو الأساس الجوهرى لإدراك أهمية الجماعة .

وفى هذا العصر الثانى أخذ الإنسان يوازن بين الدوافع الذاتية التى كانت تحركه فى الحقبة الأولى ، وبين الدوافع الغيرية التى أخذت تنمو وتتطور فى العصر الثانى . ويرى (وارد) أن هذه المشاعر السيكلوجية هى أكثر القوى الإنسانية ديناميكية وكان الإنسان خاضعاً لها وواقعاً تحت تأثيرها أكثر من خضوعه وانصياعه لقواه العاقلة . ويرى وارد أن الأفراد الذين يمتازون بقوة هذه المشاعر هم الذين يسيطرون على المجتمع لأن كل الحركات التاريخية لابد وأن تكون مسبوقة ومصحوبة بمشاعر واهتزازات قوية ، لأن القوى العاقلة ليست كافية وحدها للتسلط على الجماهير وقيادتها .

وفى المرحلة الثالثة لتطور الحياة الإنسانية ، استقرت الأحوال الاجتماعية وقامت المدن ونشأت النظم السياسية والإدارية وما إليها . فقد عجزت الوحدة القبلية عن مسايرة التطور الاجتماعى ولذلك اتحدت القبائل تحت تأثير ضغط المصالح المشتركة ولضرورة الحماية . ومن ثم قامت الحكومات وأخذت التنظيمات الاجتماعية فى الظهور وارتقت الأوضاع ومظاهر التفكير والعمل وسارت هذه النظم نحو النضج والاكتمال .

بيد أن الحكومات التي قامت للعمل على استتباب الأمن واستقرار الحياة الاجتماعية ، أصبحت أحد العوامل الرئيسية للقيام بالحروب والغزو . فالتعطش للتوسع الإقليمي ، والنزوع إلى المجد والعظمة ، وسيادة النزعات الفردية فى التحكم والتسلط ، هذه الأمور وما إليها سببت ولا تزال تسبب حروباً مدمرة وثورات لا يخبو لها أوار . ولا يزال العالم يشقى بآثارها المخربة ونتائجها السيئة الضاربة فى كل مكان .

ويأمل (وارد) أن الإنسانية سوف تنتقل إلى عصر رابع وهو « العصر العالمى » فسوف تخف النزعة القوميةوالعنصرية التى تسيطرعلى المرحلة السابقة (المرحلة القومية) وسوف تقل الحروب والتحرشات العسكرية وأساليب الحرب الباردة ،وسوف يمكن التغلب على الاختلافات اللغوية والدينية ، ويمكن اتحاد جميع الحكومات فى حكومة واحدة وتقوم هيئة عالمية لتنسيق المصالح الدولية وحل المشكلات حلا أساسه الرضى والقبول وترتكز على العدالة والحرية والمساواة . أى أن (وارد) يأمل فى أن الإنسانية ستخطو بعد العصر القومى الذى لا تزال تعانى مساوئه ، إلى عصر عالمى «Cosmopolitan or pantarchic age» عصر تسوده المشاعر والقيم الإنسانية السامية ، وتحركه العواطف الغيرية والمشاركات الوجدانية بين الدول ، عصر سيقذف بالحواجز اللغوية والجنسية والقومية ، وتشهد الإنسانية فيه قيام رابطة أو وحدة دولية تؤلف بين شعوب العالم جمعاء وتنسق جهودها فى خدمة أغراض السلم . ويعتبر هذا العصر انتصاراً للمشاعر الإنسانية والقيم الاجتماعية وتتويجاً لجهود الإنسانية فى سبيل العمل والإنتاج المثمر[1] .

وإذا حللنا آراء« وارد » التى أشرنا إليها نجد أنه يتفق مع الفيلسوف الإنجليزى (هوبز) فى تصوير طبيعة الإنسان ونزعاته ، ويتفق مع (روسو) فى تصوير مراحل الحياة الاجتماعية الأولى ، ويتفق مع (كوندرسيه) فى تصوير مستقبل الإنسانية . فقد قسم هذا المفكر الفرنسى تاريخ الإنسانية إلى عشرة مراحل ، تسعة منها تشرح ماضى الإنسانية وحاضرها والمرحلة العاشرة تصف مستقبلها وسماها مرحلة الآمال . وسيتم فيها تحقيق الرقى الذاتى بالنسبة للمواطن ، والمساواة الفعلية بالنسبة لجميع المواطنين فى الأمة الواحدة ، وبالنسبة لجميع الدول فى الجامعة الإنسانية الكلية .

---

(1) LestM ward : Dynamic Sociology 1,467.

ثانياً – فلسفة الديناميك سوسيال :

أدرك (وارد) جدب التفكير الاجتماعى فى زمانه ولا حظ اهتمام العلماء بالفلسفة الستاتيكية ولاسيما أتباع سبنسر من الأمريكان . ورأى أنه من الضرورى قبل أن يرسى مقومات علم الاجتماع ، أن يكشف عن القوى الديناميكية الفعالة التى تعتبر روح الحياة الاجتماعية وسر تقدمها . لأن العلم الذى لا يخدم الإنسانية ، علم ميت عقيم لا حياة فيه . ولإنقاذ علم الاجتماع من الجمود والعقم الذى ينتظره ، يجب العناية بمعالجة موضوعات الديناميك سوسيال وكشف القوى الاجتماعية والقوانين الديناميكية المسيطرة عليها . وهذه الاعتبارات هى التى حدت به أن يبدأ إنتاجه العلمى بكتابه « الديناميك سوسيال » . وبالرغم من أنه أولى المباحث الديناميكية مزيداً من العناية والاهتمام ، فإنه لم يقصر فى الدراسات الإستاتيكية ، فقد عالجها كذلك بقوة وعمق . وهو فى هذا الاتجاه تلميذ غير مباشر للفيلسوف « أوجست كونت » الذى اعتبر الديناميك أسمى وأهم من الستاتيك ، واعتبر القوانين الديناميكية أعم وأشمل من قوانين الستاتيك . هذا ، إلى أن القوانين الستاتيكية تتوقف فى كشفها وإدراكها على القوانين الديناميكية التى يجب أن نصل إليها أولا .

وتتلخص نظرية (وارد) فى أن العوامل الطبيعية لا تعمل منفردة فى عمليات التطور والارتقاء . لأن الإنسان ، وهو أسمى الكائنات الاجتماعية ، يعتبر عاملا إيجابياً فى توجيه هذه العمليات ويستطيع بفضل عقله وذكائه أن يتدخل فى عمليات الطبيعة فقد يؤخرها وقد يعجل بها وقد يغير اتجاهاتها . ويستطيع كذلك أن ينظم عمليات القوى التطورية التلقائية ويسيطر عليها . هذا ، ولا يقتصر نشاطه على العالم الطبيعى ، بل يشمل كذلك العالم الاجتماعى . وإذا كان قد استطاع منذ القدم أن يوجه القوى الطبيعية إلى غايات اجتماعية ، فإنه يستطيع كذلك أن يوجه القوى الاجتماعية إلى أغراض اجتماعية . وهذا المجهود هو المادة التى يتخذها الديناميك سوسيال موضوعاً لدراساته ، وهو العمل الحق الذى ينبغى أن يقوم به عالم الاجتماع . لأن علم الاجتماع العلم الذى يصلح لأن يكون أساسا وقاعدة لجميع الجهود الذى تبذل لتحسين قدرات وخصائص الجنس الإنسانى والعمل على إنعاشه وإسعاده . ولا شك أنه فى هذا الصدد إنما يقوم بأسمى الوظائف وأرقاها شأنا لأن موضوعه إنما يتعلق بسعادة الإنسان وكمال الجنس على السواء .

والاعتبارات التى أشرنا إليها هى التى دعته إلى أن يحمل على « نظرية الحرية Laissez Faire» أى اترك الطبيعة تعمل » فهى فى نظره نظرية فاسدة لأن الطبيعة عمياء وتتطور تلقائيًا ولا يمكن لعملية التطور أن تحقق أهداف التقدم الاجتماعى إلا إذا خضعت لتوجيه الإنسان الذى يستطيع بفضل ذكائه أن يكيفها وفق الغايات الاجتماعية أما إذا تركت هذه العملية بدون توجيه فإنها تتعارض مع مطالب التقدم « لأن المجتمع هو القادر على أن يحسن نفسه بنفسه » والتقدم فى نظره لا يمكن أن يكون أداة طيعة لقوانين التطور العامة ، ولكنه يرجع إلى القوى الاجتماعية الكامنة فى كل تنظيم اجتماعى .

وفى هذا الصدد يفرق (وارد) بين التطور الطبيعى ، والتقدم (الصناعى) الواعى . فالأول أعمى ، أما الثانى منتج ومثمر . والأول عملية تكوينية «genetic» أما الثانى فعملية هادفة وغائية «Telelogical» ويمتاز الأول بازدياد واتساع نطاق عملية التباين «Differenciation» أما الثانى فيرتكز على عمليات التقدير والإحصاء «Calculation» ولذلك فإن التقدم المقصود الصناعى «Artificial» أسمى وأجدى من التطور التلقائى وأكثر تحقيقاً للأهداف والغايات التى ينشدها المجتمع[1] .

ويرى (وارد) أن الديناميك الاجتماعى يدرس من ناحيتين :

الناحية الأولى ، وصف وتحليل الظواهر السائدة فى مجتمع ما تحت تأثير القوانين الطبيعية والاجتماعية . أى تقرير ما هو كائن فقط وليس لهذه الدراسة أية صلة بما ينبغى أن يكون فهى دراسة تقريرية شارحة تشخص حالة المجتمع وتصف ظواهره ونظمه كما هى ، وهى موضوع علم الاجتماع النظرى أو الخالص «Pure Sociology» والناحية الثانية ، هى دراسة تطبيق المطالب والأغراض الاجتماعية على الحالات القائمة ورسم أفضل الطرق لتحقيق ما ينبغى أن تكون عليه ظواهر المجتمع ونظمه وهذه الدراسة هى موضوع علم الاجتماع التطبيقى «Applied Sociology» الذى يجب أن يقوم مكملا الاجتماع الخالص لكى يدرس كيفية تطبيق القوى الديناميكية على عمليات التطور الطبيعى والعمل على تحقيق الأهداف والغايات الاجتماعية .

ويحدد (وارد) ميدان العلمين المشار إليهما على النحو الآتى : إن علم الاجتماع

(1) Bogadus ; The Development of Social thought p. 308.

الخالص يصف التطور التلقائى للمجتمع ، بينما يعالج الاجتماع التطبيقى أثر الوسائل الصناعية ومبلغ تدخل القوى الديناميكية فى التعجيل بعمليات التقدم . والاجتماع الخالص (النظرى) يعالج موضوع التقدم الارتقائى النازع إلى الكمال «Achievement; Perfection» أما الاجتماع التطبيقى فيعالج ما يقطعه المجتمع من خطوات التحسن «Improvement» :

وبالرغم من أن الاجتماع التطبيقى يدرس مظاهر تدخل الإنسان للتعجيل بالإصلاح إلى الاجتماعى ، فهو فى ذاته ليس صلاحاً اجتماعياً «Social Reform» بمعنى أنه لا يطبق مبادئ الإصلاح ، ولكنه يبحث فى كيفية تطبيقها .

«It does not itself apply sociological Principles; it seeks only to show how they may be applied.»

فهو العلم الذى يضع لنا المبادئ التى ترشدنا للعمل[1] فى الميدان الاجتماعى ، أما استغلال هذه المبادئ فى التطبيقات الاجتماعية فهو « الإصلاح الاجتماعى » .

ثالثاً — قوانين الديناميك الاجتماعى :

انتهى « وارد » من دراساته الديناميكية إلى تقرير أربعة قوانين أو مبادئ عامة ترتكز عليها الحركة الاجتماعية وهى :

١ — القانون الأول ويسميه « تنافر القوى «Difference of Potential» وقد استعار هذا الاصطلاح من العلوم الطبيعية . ومؤداه أن تنافر الإمكانيات واختلاف الاستعدادات عند الأفراد يؤدى إلى اضطراب الاستقرار الاجتماعى وزعزعة ثبات المجتمع وهذه الظاهرة تجعل من الضرورى تقرير المسئولية والضبط الاجتماعى «Social Laibility» ويعزو هذه الظاهرة فى غالب الأمر إلى اختلاف الثقافات وصراعها . وبالرغم من خطر ظاهرة الاختلاف والتنافر ، فإنها تؤدى إلى التقدم لأن التقدم لا يحدث إلا من انتشار عناصر غير متماثلة

«Progress results from the fusion of unlike elements.»

ويبدو تنافر القوى فى احتكاك العقول وصراع الأفكار ، وهذا الصراع يؤدى إلى الاختراع والابتكار فاختلاف القوى وتنافرها يؤدى إلى صراعها ، وهذا بدوره يؤدى إلى خلق

(1) L. Ward; Applied Sociology pp. 5. Sqq.

أفكار جديدة . أى أن عملية صراع الأفكار تشبه التفاعل الكيميائى . فكما أن المركب الناتج من التفاعل الكيميائى يختلف كل الاختلاف عن العناصر الداخلة فى تركيبه ، فكذلك صراع الأفكار واتحادها وتفاعلها يؤدى إلى خلق أفكار مستحدثة . وهذا هو الدافع إلى التقدم . ومن هذا التحليل يبدو مبلغ تأثر (وارد) بالاتجاه الآلى الميكانكيى .

٢ – القانون الثانى ويسميه قانون الابتداع والتجديد «Innovation» وهو نتيجة لازمة لعمل القانون الأول الذى يقوم على صراع القوى المتنافرة .

٣ – القانون الثالث ويسميه « قانون الفعل «Law of Conation» ومؤداه أن المجهود الاجتماعى الذى يبذله الفرد لإشباع رغباته والمحافظة على حياته والتكيف ببيئته يعتبر من أهم مقومات ودوافع التقدم الاجتماعى . فالسعى المتواصل الذى يبذله الفرد لتحقيق حاجاته ، ومحافظة الأم على طفلها ، والتضحية التى يقدمها الآباء تأميناً لحياتهم وحياة المجتمع ، والمجهودات البنائية للتكيف البيئى ، كلها مظاهر للتقدم الاجتماعى لأنها تهدف إلى سعادة الأفراد . فلفظ «Conation» يتضمن مجموعة من القوى الفاعلة النشيطة التى توجه الحياة اليومية وهى بصفة غير شعورية تؤدى إلى إسعاد الأفراد وتقدم الجنس الإنسانى[1] .

٤ – القانون الرابع هو قانون التغير الاجتماعى الغائى «Social Telesis» ومؤداه « أن الغائية الاجتماعية يمكنها أن تحول الشهوات والرغبات الخاصة إلى اتجاهات اجتماعية نافعة . إذ لو تركت هذه الشهوات بدون توجيه جمعى مرسوم تتجه اتجاهات ضارة نحو غايات وأهداف شريرة . وهو يشبهها بالنار ، فقد تكون قوة مدمرة ، وقد تكون قوة إيجابية نافعة . والمجتمع هو صمام الأمن فإذا أمكن لأفراده أن يعملوا متعاونين لتحقيق أغراض جمعية ، لوصلوا إلى أفضل النتائج ، وبالعكس إذا مزقتهم التيارات الفردية والروح الأنانية الخبيثة . فالمجتمع لا بد أن يعمل بفضل ذكاء أفراده لحماية نفسه والحرص على مقوماته ، ولا بد أن يسهم جميع الأفراد فى العمل المثمر فلا يصح أن ملايين تشقى فى العمل والجهد ، وأخرى تعيش طفيلية كسيحة لا تعمل . أما إذا ترك المجتمع نفسه للتقدم الطبيعى فإنه لن يسلم من ظواهر الجهل والفقر والبؤس » .

---

(1) Conation; the faculty of volition and Action; or the product of this faculty.

ولكى يستطيع المجتمع أن يسير بخطى ثابتة وئيدة نحو التغير الاجتماعى الغائى المنشود لا بد أن تكون سيادته لنفسه . ولذلك نصب (وارد) نفسه مدافعًا عن نظرية « سلطة المجتمع «Sociocracy» .

ولا يعنى بهذا النظام حكماً ديمقراطياً أو حكمًا ينفرد به بعض أفراد الشعب ، ولكنه نظام سياسى بمقتضاه يحكم المجتمع نفسه . ويشعر فيه كل مواطن بأنه محكوم ومقيد برغبات المجتمع وغاياته . وليس محكوما برغباته الخاصة [1] .

رابعاً – نظريته فى القوى الاجتماعية :

إن تحليل وارد للتطور الاجتماعى والحركة الاجتماعية يرتكز على تصوره للقوى الاجتماعية التى تعتبر أجهزة هذه الحركة . وأول هذه القوى فى نظره هى الحاجة أو الرغبة « Desire» فهى أساس كل الأفعال ومظاهر السلوك .

«Desire is the essential basis of all actions»

والرغبات متعددة ومعقدة وهو يقسمها إلى مجموعات ثلاث :

الأولى : الحاجات والرغبات المتعلقة بالناحية الغاذية والمعيشية «Nutritive » .

الثانية : الحاجة والرغبات المتعلقة بالناحية الإنجابية والتناسلية «Reproductive» .

الثالثة : الحاجات والرغبات المتعلقة بالناحية الاجتماعية «Sociogenetic» .

والغرض من المجموعة الأولى حفظ قوام الفرد وصيانته وحماية حياته ويسميها أيضاً «The Ontogenetic forces» والغرض من المجموعة الثانية حفظ النوع وتقويته والعمل على بقائه ويسميها «The phylogenetic forces» والغرض من المجموعة الثالثة الحرص على مقومات المجتمع الروحية والعمل على تقدمه .

وسنتكلم بإيجاز عن كل مجموعة منها .

١ – القوى الغاذية (المتعلقة بوجود الإنسان «Ontogenetic forces» .

يقول « وارد » إن الحاجة إلى الطعام كانت الرغبة الأولى والأساسية لكل الكائنات :

---

(1) «Sociocracy Conntes a rulership of the poeple in which each person is governed primarily not by his own interests; but by the interests of Society».
American Journal of Socilogy 18–737,754.

وهى لاتزال مسيطرة على الجنس الإنسانى وستستمر كذلك طوال حياة الإنسانية. وقد أمضى الجنس الإنسانى آلاف السنين منذ طفولته الأولى إلى وقتنا هذا فى تعقب مصادر الطعام وجمع أقصى ما يمكن جمعه من الأقوات . وعندما نضب معين الغذاء الطبيعى أو كاد ؛ اضطر الإنسان إلى أن يعمل ويكد ويبتكر وسائل جديدة للحصول على الأقوات الضرورية خشية أن يموت ويهلك جوعاً . وكان من الطبيعى أن يهاجر بعض الأفراد من مكان إلى آخر جرياً وراء وسائل العيش وسعياً وراء الأقوات ؛ وأن يعمل البعض الآخر على زيادة الكفاية الإنتاجية للبيئة التى يعيشون فيها .

وفى ضوء ما أشرنا إليه ؛ يقرر « وارد » أن الحاجة إلى الطعام هى التى دفعت الإنسان إلى العمل . فالعمل فى نظره ليس هو الحالة الطبيعية للإنسان ولكنه شىء غير طبيعى دفع إليه الإنسان دفعاً ، أى أن الشعور المستمر بالجوع هو الذى حول الإنسان إلى كائن عامل .

ونظرية « وارد » فى هذا الصدد تختلف عن نظرية المفكر «Veblen» الذى كان يرى أن الإنسان مزود بغريزة حب العمل الإنسانى «Workmanship» وأنه مدفوع تلقائيًّا إلى أن يعمل ويكد وذلك لتحقيق حوائجه وتنشيط القوى الكامنة فيه ولكى يهرب من الملل والسأم «Ennui» الذى يعتريه إذا تقاعس أو تكاسل .

وانفعال الإنسان بالعمل واستمراره فى الكد هو الذى أدى به إلى الاختراع . ولولا ما وصل إليه الإنسان من مظاهر الابتكار والاختراع ؛ لما استطاع أن يشق طريقه فى الحياة ويضع أولى لبنات الحضارة . فقد تمكن بفضل وسائله المحدودة الأولى أن يذلل متاعب الحياة الاجتماعية ، ويحمى نفسه وذريته ؛ ويؤمن مستقبله ، ويحطم القيود الطبيعية التى كانت تقيده وتأسره . فقد عرف الزراعة واستئناس الحيوان ودجن الطيور وتخزين الأطعمة للانتفاع بها فى أوقات القحط وأتقن الحرف اليدوية وصنع أدوات الحفر وأسلحة الهجوم والدفاع . وعرف فضل الملكية الخاصة . وكان حرصه على ملكيته هو أول وازع لاستعمال القوة وقيام الخصومات والمشاحنات . وهذه بدورها كانت أول وازع لتقرير القوانين ووضع التشريعات الملزمة والمزودة بقوة الجزاء . وقد تفنن الأفراد فى أساليب التكالب على الثروات والاستئثار بالملكيات الخاصة . وحتى العصر الحاضر لم ترتفع قيم الأفراد الأخلاقية ومعاييرهم بصدد الحصول على مزيد من الثراء .

وهذه الأساليب تصور لنا مبلغ « الخداع الاجتماعى «Social Deception» الذى يمارسه الأفراد ضد بعضهم البعض الآخر . فقد كان لهذا الخداع دعائم الفضل فى تعزيز النظام الطبقى والرأسمالى . إذ نلاحظ انقسام المجتمعات المعاصرة إلى فئات طبقية يمزقها الحسد الاجتماعى وترتكز العلاقات بينهـــا على أساس « الخداع » فكما أننا نخدع الحيوان لكى نذبحه أو نستأنسه ، فكذلك نخدع الإنسان لكى نسخره ونمتص عرق جبينه ونثرى على حسابه . والعجيب أن المجتمع يجل هذه الطبقات التى لا هم لها إلا الخداع والنفاق الاجتماعى . ولذلك ينبغى أن يضع المجتمع حداً لمثل هذه الفئات الزاحفة إلى الثراء ويقرر التشريعات التى من شأنها أن تقضى على المساومات الرخيصة التى تعتمد عليها هذه الطبقات فى معيشتها .

إن الثروة فى ذاتها قوة أساسية فى تطور الحضارة وهى عماد التجارة والصناعة ومظاهر الترف ، بيد أن تركزها فى أيد قليلة يؤدى إلى عدم المساواة وانعدام العدالة . فكم من طفل يصبح بين غمضة عين وانتباهتها من أصحاب الملايين ، وآخرون يولدون معدومون . ويخلق بينهم قوى منفرة لا أساس لها لأنها ترتكز على اعتبارات وهمية وصناعية وهذا هو أخطر عيب فى النظام الرأسمالى وهو أنه يقيم مفارقات غير طبيعية بين الأفراد ، وإذا كانت الرأسمالية قد خلقت بين الأفراد « عدم المساواة » بصفة صناعية ، فإن الاشتراكية تحاول كذلك أن تخلق بين الأفراد « مساواة » صناعية ليس لها ما يبررها[1] .

ومن عيوب الرأسمالية أنها أتاحت الفرصة لنمو الطفيليات الاجتماعية « Social Parasities» فقد أضحت المجتمعات منقسمة إلى طبقتين : طبقة عاملة كادحة وطبقة غير عاملة « طفيلية » أى أن هناك طبقتين إحداهما تعيش على أكتاف الأخرى وذلك بفضل ذكائها ومهارتها وإتقانها أساليب النفاق والخداع الاجتماعى . وأهم هذه الأساليب : اللصوصية والوساطة والاتجار بالحرب والاشتغال بالسياسة والدين والتبشير والاحتكار . ومن العجيب أن أفراد هذه الطائفة أكثر تعاوناً لتحقيق مصالحهم . أما الطبقة العاملة فإنه من المؤسف حقاً أنها لا تفهم التعاون ولا ترقى إلى إدراك قيمة منزلتها فى الجهاز الاقتصادى وذلك لأنها لم تتلق قسطاً وافراً من التربية والتعليم . هذا إلى أن ظروف العمل والإجهاد المستمر لن يهيئ لها الفرص للارتقاء بأحوالها الخاصة ومستوياتها العقلية والأخلاقية والروحية . ومن ثم لن تصل هذه الطبقة إلى مستوى ذكاء الطبقة الطفيلية ولن

(1) Capitalism creates artificial inequalities; Socialism Creates artificial equality.

تستطيع إدراك المرامى البعيدة لأساليب النفاق والخداع الاجتماعى التى تمارسها . إن هذه الطبقة لسوء الحظ مرهقة بالعمل وبالحصول على ضروريات الحياة بشق الأنفس وبالنضال المميت ضد الطبقة الطفيلية التى تسرف فى تجويعها وإرهاقها .

٢ — القوى الإيجابية «Phelogenetic forces» :

تتجه هذه القوى إلى تحسين النوع والارتقاء بقدراته بيولوجيا حتى يكون أصلب عوداً وأعز منعة فى مستقبله . ولست هذه القوى مقصورة على الإنسان ، بل هى موجودة فى عالم الحياة غير أنها تخضع لدرجات ومفارقات تبعاً لوضع الكائن ودرجته فى سلم التطور الارتقائى . ففى أحط درجات الكائنات الحية لانجد تمييزاً بين ذكر وأنثى ، وفى بعض الفصائل لا يظهر الذكر إلا بصفته مجرد ملقح .

أما مملكة الإنسان فإنها تخضع لظاهرة الانتخاب الجنسى . إذ يمتاز الذكر فيها بتكوينه البيولوجى ووضوح وظائفه .

ويعتبر هذا التطور فى الانتخاب الجنسى أحد الفروق الجوهرية بين الحيوانية والإنسانية ويمكن تفسير هذا التحول بأن الكائن كلما ارتقى فى سلم التطور كلما كان تركيبه العضوى أكثر حساسية .

ويختلف تفاعل هذه القوى الإيجابية فى مملكة الحيوان عنها فى مملكة الإنسان . فالحيوان يزاول اتصالاته الجنسية بدافع الغريزة العمياء وبدون حياء وخجل وبعيداً عن التحديدات الأسرية ، أما الإنسان فيزاول ذلك بقدر من الوعى والشعور والخيال ويخضع للمسئولية ورقابة الضمير . والذكر فى مملكة الإنسان يستطيع عن طريق الإغراء والإغواء والتفاعل الوجدانى والعاطفى أن يثير ويشبع آلاف الرغبات لدى الإناث ومن ثم استطاع أن يأسرها من هذه الناحية ويجعلها أداة طيعة لرغباته وبفرض حمايته عليها من أقدم العصور وأصبحت هى بدورها تخشاه وتطيعه وتستميله لتحقيق رغباتها وحمايتها .

وقد أتاحت هذه القوى التناسلية لقيام أول مظهر من مظاهر الحب وهو الحب الجنسى وهو حب حيوانى شهوانى فى طبيعته ، حب تحركه الغريزة العمياء غير الشعورية . وقد تطور هذا الحب إلى حب زواجى بين الزوج والزوجة عندما استقرت الأوضاع الاجتماعية فى الخلايا الإنسانية التى كونها الإنسان الأول .

ويقرر « وارد » طائفة من المفارقات ومظاهر عدم المساواة بين الجنسين بالرغم من أنهما يعيشان معاً ويتبادلان المصالح المشتركة . وأهم ما أشار إليه فى هذا الصدد ما يأتى :

١ — عدم المساواة فى الملبس والتزين .

٢ — عدم المساواة فى الواجبات الملقاة على كل منهما .

٣ — عدم المساواة فى الحقوق التى يقررها المجتمع لكل منهما .

٤ — عدم المساواة فى التربية .

٥ — عدم المساواة أمام الفرص السياسية والاجتماعية .

وبالرغم مما قطعته المرأة من تطور ، وبالرغم من حصولها على طائفة من الحقوق ومساواتها بالرجل فى كثير من الاعتبارات ، ونزولها إلى ميدان العمل والجهاد ، بالرغم من كل هذا ، فلا تزال رواسب الإهمال والتنكر لمركزها الاجتماعى ، وبقايا التقاليد الموروثة ، عالقة بالأذهان وتؤثر أبلغ الأثر فى علاقات الذكر بالأنثى .

٣ — القوى الاجتماعية **Sociogenetic forces** :

قسم وارد القوى الاجتماعية إلى ثلاثة : أخلاقية وجمالية وعقلية .

(أ) القوى الأخلاقية وهى فى نظره إما أن تكون عنصرية تتعلق بالجنس «Race» أو فردية . الأولى ترتكز على العادات والتقاليد والشعبيات ، والثانية ترتكز على الأنانية والأثرة . ويرى أن تقرير الواجبات أمر ضرورى لاستقرار أخلاقية الجنس . كما أن تقرير الفضائل أمر ضرورى لارتقاء مستويات وتعزيز فلسفة الإنسانيات «Humanitarianism» التى تهدف إلى الإصلاح والارتقاء بقيم الإنسانية . وهذا الإصلاح يتطلب بدوره إعادة تنظيم المجتمع بحيث يمكن تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد ممكن من أفراده ويمكن القضاء على معظم المتاعب والصعوبات التى يشقى بها الأفراد .

(ب) القوى الجمالية وتشمل الموسيقا والرقص والهندسة والنحت . وتتوقف أهمية هذه القوى على مبلغ تذوق الأفراد لها ومبلغ تراثهم لمزاولتها كما تتوقف على أصحاب الاستعدادات والمواهب ومبلغ إسهامهم فى الرقى بها .

وتمثل هذه القوى ناحية إنسانية هامة وتؤدى وظيفة اجتماعية ضرورية لاستكمال قواه

المنشطة وضمان ارتقائه . لأن المجتمع لا يقل فى حاجته إلى الفنون الجميلة عن حاجاته من المطالب المادية والمدركات العقلية .

(ح) القوى العقلية وهى القوى الدافعة إلى حب التعليم وتحصيل المعارف والرغبة فى تعليم الغير والوصول إلى المعرفة وحقائق الأشياء ويقسمها « وارد » إلى ثلاثة أنواع وهى :

١ – تحصيل المعرفة «To acquire Knowledge»

٢ – الوصول إلى حقائق الأشياء «To discover truth»

٣ – تعليم الغير «To impart imformation»

ويرى أن الرغبة فى تحصيل المعارف قوية جداً عند النشء . هذا إلى أنه من السهل طبع عقولهم على ما نريده من المعلومات والحقائق ويرى أن هناك أربعة مناهج أساسية تستخدم فى التعليم والتثقيف وهى : المحادثة . التدريس . إلقاء المحاضرات والكتابة «Conversing ; Teaching; Lecturing; Writing.»

وبجانب القوى المشار إليها ، توجد قوة العقل وهى القوة الجامعة الموجهة للحياة الاجتماعية . وقد ميز « وارد » بين الأحاسيس والمشاعر «Feelings» والانفعالات والعواطف «Emotions» والرغبات والشهوات «Appetites» باعتبارها قوى محركة باعثة لمختلف وجوه النشاط الإنسانى ، وبين العقل بوصفه أداة التفكير ومصدره ، وقاعدة عامة لتوجيه كل هذه البواعث النشيطة والقوى المحركة للإنسان بوصفه كائناً حاساً وعاقلا .

خامساً – نظريته فى شئون الأسرة :

اهتم « وارد » بدراسة المشاعر والأحاسيس الإنسانية واعتبرها قوى مؤثرة فى سلوك الإنسان ونشاطه الاجتماعى . ورتب على ذلك نظريته فى (الحب) فقد رأى أن هناك استعداداً طبيعياً أساسياً مزوداً به الجنس الإنسانى وهو سر بقائه ودوامه وهذا المبدأ الأساسى هو « الحب الطبيعى » وقد تطور هذا الحب منذ فجر الإنسانية وتشعب إلى فروع كثيرة أهمها : الحب العاطفى بين الرجل والمرأة ، والحب الزواجى بين الزوج والزوجة ، والحب الأبوى بين الأب والأولاد ، والحب الأمى بين الأم ورضيعها ، والحب القائم على صلات الدم بين العصبيات وذوى القربى والأرحام ، وحب الجنس القائم على الصلات العنصرية

والأتنلوجية والاجتماعية بين الأجناس . وبالرغم من هذه الإنشعابات والتطورات ، فإن الحب الطبيعى ما زال هو العصب الجامع والدعامة الأساسية لدوام بقاء الجنس الإنسانى .

ويتكلم عن الحب العاطفى (الرومانتيك) باعتباره أول خطوة فى ظهور نظام الزواج وقد نشأ هذا الحب فى نظره من عدم مساواة المرأة بالرجل واعتمادها عليه . وهو أول خطوة تخطوها المرأة نحو الحصول على مركزها الأول الذى كانت تشغله قبل أن تخضع لقوة الرجل . وهذا الحب ضرورى قبل الزواج بالمعنى المعروف . وهو يدل على مركب النقص فى الجنسين على السواء بمعنى أنه عندما تقع امرأة فى حب رجل أو العكس فإن الظاهرة تدل على أن كلا منهما تنقصه صفات يريد أن يكملها من الآخر . بيد أنهما لا يحسان هذه الرغبة بل ينقادان إليها بصفة غير شعورية . ولذلك يجب أن تتاح الفرص لنمو هذا المظهر من الحب بالدرجة التى يسمح بها المجتمع ، لأنه مفتاح الحياة الزوجية السعيدة . وعندما ينتهى هذا الحب بالزواج ، فإنه ينتقل إلى عاطفة زواجية . وهذه تختلف كل الاختلاف عن عاطفة الحب لأنها أكثر استقراراً وبعيدة عن ثورة الانفعالات التى يثيرها الحب العاطفى .

ويرى (وارد) أن هناك مرحلة من الشيوعية الجنسية مرت بها الإنسانية قبل أن ينتشر بين الجنسين « الحب العاطفى » وقد ظهرت رواسب هذه الإباحية الجنسية فى العلاقات الزواجية وفى أفكار الرجال عن الزواج . ولعل الصعوبات والاضطرابات التى يعانيها الزواج الثنائى (نظام وحدانية الزوج والزوجة) ترجع فى معظمها إلى بقايا نظام الشيوعية الجنسية لأنه من الصعب حقاً أن ينتقل الأفراد من إباحية مطلقة إلى الاقتصار على زوجة واحدة ، فإن ذلك ينطوى على تقييد حرية الرجل وعلى رغبته الأكيدة فى حب التغيير . ولذلك فإن نظام وحدانية الزوجة ينطوى على قوة أخلاقية كبيرة ويحتاج إلى مران طويل وتهذيب لعواطف الإنسان . ولا شك أن تركيز الإنسان لانفعالاته وعواطفه وشهواته حول كائن واحد فقط يدل على سمو المعايير الأخلاقية والقدرة على ضبط النفس وكبح نزواتها . ومن ثم ، فإن نظام وحدانية الزوجة هو النظام الأمثل الذى تسعى المجتمعات المعاصرة إلى تدعيمه والحرص على مقوماته والبعد به عن عوامل الانحراف .

ومتى تم الزواج وانتقل الحب العاطفى إلى حب زواجى تظهر فى جو « الأسرة الزواجية » مظاهر أخرى من الحب وهى : الحب الأبوى والأمى وحب ذوى القربى . ويرى « وارد » أن حب الأم يرجع إلى أصول بيولوجية وهو ثمرة اللذة الجنسية التى تمارسها الأم عن طريق

الرضاعة . ولذلك يعتبره « تجربة التذييات » وهو فى نظره أهم مظاهر الحب لأنه يؤدى بيولوجيا إلى حفظ النوع . أما المظاهر الأخرى فترتكز على عنصر الدم وترمى إلى تأكيد الشعور بالقرابة الدموية ، ولذلك يعتبرها « تجربة إنسانية »[1] .

ويرى « وارد » أن أقدم مظهر للحصول على زوجات هو الاستيلاء على المرأة بالقوة . وكان هذا النظام قائماً على أساس احتكار الأقوى للنساء ، أما الرجل الضعيف فقد كتبت عليه العزوبة لأنه لا يقوى على منازلة الأقوياء فى سبيل الحصول على امرأة . ويرى أن الزواج فى فجر الإنسانية كان مرتبطاً بالضرورة الاقتصادية ، ولكن أشكاله تطورت فأصبحت المرأة سكناً للرجل . ومهما كان من تطور طرق الزواج وأشكاله وانتقاله عبر التطور من شيوعية جنسية إلى نظام التعدد ثم إلى الوحدانية فإنها كلها تشترك فى مبدأ عام وهو ملكية الزوج للزوجة .

وعرض « وارد » الكلام عن حقوق المرأة ومظاهر عدم المساواة بينها وبين الرجل وقرر أن أنانية الفرد حالت وقتاً طويلا دون المساواة الحقة هذا ، وقد وقفت العادات والتقاليد والقوانين والرأى العام حجر عثرة فى سبيل الاعتراف بمركزها الاجتماعى وتقرير مساواتها بالرجل . بيد أنها استطاعت أن تشق طريقها معتمدة على نفسها حتى وصلت إلى المساواة المنشودة وأصبحت تقاسم الرجل مختلف مظاهر العمل والنشاط الاجتماعى .

٣ — سمول Small :

ولد العلامة سمول «Albion Woodbury Small» عام ١٨٥٤ وتوفى عام ١٩٢٦ وهو من علماء الرعيل الأول الذين أرسوا دعائم علم الاجتماع فى أمريكا وهو يعتبر من وجهة النظر العامة « دائرة معارف » فقد عالج مختلف موضوعات هذا العلم ومشكلاته الجوهرية وتعمق فى بحث بعض المسائل المتصلة بالميتودولوجيا والانثروبولوجيا وتحليل الثقافات ، واهتم فى أخريات أيامه بدراسة مناهج البحث (الميتودولوجيا) واعتبر نفسه متخصصاً فى هذا الفرع وحجة فيه . ونظراً لما بذله من جهد علمى شاق وما أظهره

(1) Ward; Pure Sociology pp. 351—416.

Groves; The Family and its Functions.

من وجوه الأصالة فى الرأى يمكننا أن نضعه بين « العلماء الكبار » أمثال كونت وسبنسر وسيمل ودور كايم .

كتب مقالا عن علم الاجتماع فى دائرة المعارف الأمريكية أوضح فيه أن علماء الاجتماع فى أمريكا لم يكونوا متخصصين فى هذا العلم منذ حداثة تكوينهم وفى اتجاهاتهم الجامعية الأكاديمية ولكنهم جاءوا إلى العلم من ميادين ثقافية مختلفة كالتاريخ والاقتصاد والسياسة والدين وهذه الحقيقة تنطبق عليه كما تنطبق على كثيرين غيره من علماء الاجتماع فيقول عن نفسه أنه لم يكن متخصصاً منذ البداية فى علم الاجتماع . ولكنه كان ثمرة لاتجاهات ثقافية متعددة .

بدأ حياته واعظاً ثم درس التيولوجيا منذ عام ١٨٧٦ إلى عام ١٨٧٩ [١] وأرسل فى تلك السنة مبعوثا إلى ألمانيا ليستكمل دراساته فى جامعتى ليبزج وبرلين واستمر حتى عام ١٨٨١ وتتلمذ هناك على مشاهير علماء الاقتصاد والاجتماع مثل شمولر «Gustav Schomller» ؛ وفاجنر «Adolf Wagner» واهتم بدراسة المشكلة الاقتصادية ومشكلة الطبقات والصراع الطبقى وعندما عاد إلى أمريكا تابع دراساته التاريخية والاجتماعية ووضع أول بحث بعنوان «أصول القومية الأمريكية» [٢] ، ومن ثم أصبحت الدراسات التاريخية والسياسية والاقتصادية هى شغله الشاغل . وأضاف إلى ذلك اهتمامه بأسس الدراسة ومناهج البحث الاجتماعية التى كرس لها أخريات أيامه .

أولا — مصادر فلسفته الاجتماعية :

لا يمكننا أن نجد له نظريات متكاملة فى معظم أجزاء بحثه ، ولكننا نجد مبادئ وآراء استعارها من الأساتذة السابقين وطورها أو أمركها . فمثلا نجد أنه تأثر فى كتابه « الاجتماع العام «General sociology» بأصحاب النظرية العضوية أمثال «سبنسر وشافل» ويبدو أنه قرأ لهذا الأخير كثيراً وتمثل كتاباته بكل كفاية . فقد أسرف مثله فى « المماثلة » بين المركب الحيوى والمركب الجمعى . ونجد هذا التأثر واضحاً كذلك فى الجزأين الثالث والرابع من كتابه « مقدمة فى دراسة المجتمع » . غير أنه يفضل التطوريين

---

(١) كان يدرس فى معهد Newton Theological Institntiou

(٢) Origins of American Nationality.

فى أنه استخدم منطق « المماثلة Analogy » بصورة متزنة وبطريقة مثمرة تعطى صورة واضحة للعمليات الاجتماعية ومبلغ مشابهتها لنظائرها فى عالم الأحياء .

وتأثر « سمول » كذلك بأساتذته الألمان . فدراسته للصراع بين الطبقات (كما عرضه شمولر) جعله يدرك أهمية المحركات المادية فى العمليات الاجتماعية . ودراسته للتاريخ الاقتصادى فى القرن ١٩ أقنعه تماما بضيق أفق الاقتصاديين الكلاسيك . وقد أدى به ذلك إلى الاعتقاد بأنه من الضرورى دراسة الناحية الديناميكية دراسة واضحة وتركز على فهم واضح لأهمية المصالح المادية ومبلغ تأثيرها فى النشاط الاجتماعى . وهذا الفهم يتطلب تصنيف المصالح الإنسانية ووضع جدول إحصائى يتضمن أنواعها وحدودها ووظائفها ومظاهر صراعها ومبلغ تأثيرها فى الحياة الاجتماعية ومدى تكيف الإنسان بها . وقد شغله هذا التصنيف مدة طويلة وكرس له جهده فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر .

ومنذ عام ١٩٠٠ وقف على مؤلفات العلامة النمسوى « راتزنهوفر «Ratzenhover» ووجد أن هذا المفكر يتفق معه فى دراسته للتكيف والصراع بين المصالح الاجتماعية كما أنهما يتفقان كذلك فى أسس الدراسة . فقد اتخذا « الجماعة «The group» وحدة للتحليل الاجتماعى ، ووحدة للعمليات والعلاقات الاجتماعية ، ومحورا «Core» للمصالح الاجتماعية المنظمة المستقرة . هذا ، إلى أنهما انتهيا إلى نتائج وحقائق تكاد تكون متقاربة .

وتأثر « سمول » فوق ما ذكرناه بالتعاليم الدينية والأخلاقية التى تلقاها فى دراساته الأولى . ولذلك نجد أن الروح الأخلاقية تسرى فى كتاباته وتفيض على تعاليمه . فكان سعيه إلى تحقيق الخير الاجتماعى يزداد على ممر السنين والأعوام ، وكانت دعوته إلى الرعاية والإنعاش الاجتماعى تكتسب صلابة وقوة . وكثيراً ما أعلن أن علم الاجتماع يهب نفسه للإصلاح الاجتماعى ويضع أصوله وتحقيقاته فى خدمة برامج الإصلاح . وكان يرى أن الأخلاق ليست فى حقيقة أمرها دعوة إلى الفضيلة لتطهير الأفراد ولكنها منهج لتحسين النظم الاجتماعية والارتقاء بالحياة العقلية . ولا بد أن يرتكز هذا المنهج على تهذيب النظام الرأسمالى وإحلال المصلحة العامة محل « نظرية الربح » التى تعتبر الآن الدافع الأساسى للنشاط الاقتصادى . وقد وضحت هذه الأفكار فى كتابيه « من الرأسمالية إلى الديمقراطية ، وصراع الطبقات »[1] .

(1) Summer Between Ereas : From Capitalism to Democracy. The Conflict of Classes.

ثانياً – عرض موجز لمؤلفاته ودراساته :

هناك حقيقة هامة معروفة عن العلامة (سمول) وهى أن كتبه ومؤلفاته منذ أن كان رئيسا لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو عام ١٨٩٢ عبارة عن مجموعة محاضرات ومناقشات كانت تدور فى قاعات البحث . ولا بأس من أن نشير فى هذه الفقرة إلى أهم البحوث وأشهر ما تتضمنه من أفكار :

١ – الكتاب الأول : مقدمة فى دراسة المجتمع ونشره عام ١٨٩٤

«Introduction to the study of society»

درس فى هذا الكتاب المقدمات الضرورية للمدخل إلى علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج وأسس الدراسة وميدان العلم . ودرس تطور المجتمع من الحالة البدائية والزراعية الساذجة إلى المجتمع الحديث المعقد ، وحلل مقومات البنيان الاجتماعى والوظائف الاجتماعية معتمداً على منطق المماثلة بين جسم المجتمع وجسم الكائن الحى . وإذا كانت هذه الموضوعات قد تبدو قديمة ومطروقة ، غير أن هذا لا يقلل من شأن الكتاب فى أنه كان عملا رائعاً بالنسبة للوقت الذى نشر فيه .

٢ – الكتاب الثانى : الاجتماع العام (نشرة عام ١٩٠٥) «General sociology»
يعتبر هذا الكتاب أهم مؤلفات (سمول) وأكثرها تصويراً للمؤثرات التى غذت فلسفته الاجتماعية . عالج فيه موضوعات أكثر عمقاً من موضوعات الكتاب الأول وأكثر تركيزاً . ولخص فيه الأدوار التى مر فيها تاريخ علم الاجتماع وعرض بالتفصيل نظريات العلامة « راتزنهوفر » لا سيما تصنيفه للرغبات الإنسانية وتحليله لمدلولاتها ودرس العمليات والعلاقات الاجتماعية ومبلغ تفاعلها بالمصالح والرغبات الخاصة . وبذل (سمول) مجهوداً عميقاً وجريئاً لإرجاع القيم والتصورات الأخلاقية وأصول المشكلات الاجتماعية إلى العمليات والعلاقات الاجتماعية التى يعتبرها الأساس الوضعى للأحكام والقيم الأخلاقية . وبجانب هذه الموضوعات نجد فى الكتاب دراسات سياسية واقتصادية لا تقل شأناً عن الدراسات الاجتماعية .

٣ – الكتاب الثالث : آدم سمث والمجتمع الحديث (نشرة عام ١٩٠٧) .

حلل فى هذا الكتاب فلسفة (سمث) الاقتصادية وكشف عن بعض مقوماتها

الاجتماعية وانتهى من تحليله إلى اعتبار (سمث) مبشراً بعلم جديد هو علم الاجتماع الحديث. واعتبر كتابه (ثروة الأمم) أول بحث منظم فى الدراسات الاجتماعية لا سيما فى القطاع الاقتصادى ودافع عن نظريات سمث فى الحرية الاقتصادية وأوضح إلى أى حد تلتقى مع وجهة نظر الاجتماعيين فى الحرص على مقومات المجتمع وتحقيق التوازن التلقائى بين المصالح الفردية والغيرية وضغط على الجانب الأخلاقى من فلسفة (سمث) وخاصة نظريته فى المشاعر الأخلاقية «Moral sentiments»

٤ ــ الكتاب الرابع « الكمر اليست : **The cameralists**[1]

ودرس فيه النظريات الاقتصادية الألمانية . وعقد مقارنة بين هذه النظريات وآراء المدرسة التجارية . وأثار فى هذا الكتاب سؤالا هاماً ملخصه ما هو النظام الاقتصادى الذى نطمئن إليه ؟ وإلى من نكل أمر هذا النظام ؟ ؟

ويبدو أنه أيد بطريقة أو بأخرى سياسة التوجيه الاقتصادى . أى أنه اهتم بدراسة الاقتصاد من حيث إنه وظيفة من وظائف الدولة وليس عملاً فردياً . وأوضح أن النظرية الاقتصادية الألمانية نظرية جمعية فى أرقى صورها . فهى نظرية الحكومة وبفضل الحكومة ولتقرير الثقة فى الحكومة . وأشاد بفضل القوة ؛ فالحاكم يجب أن يكون قوياً على شعبه ؛ ويسير فى الطريق الذى يعزز قوته ويؤيد حكمه ويجعله ثابتاً ومستقراً ؛ وعليه أن يتخذ من الوسائل ما يستطيع بفضله الحرص على نفسه ضد قوى الشعب من المتطلعين إلى الحكم . بيد أن هذه القوة لا تتنافى مع مبلغ حرصه على تحقيق الخير العام وإسعاد مواطنيه

٥ ــ الكتاب الخامس : معنى العلم الاجتماعى (ونشره عام ١٩١٠) .

«The Meaning of Social seience»

ناقش فى هذا الكتاب ثلاثة موضوعات وهى :

١ ــ بالرغم من زيادة التخصص فى ميدان الدراسات الاجتماعية ؛ وزيادة الانشعابات والتفرع فى علم الاجتماع ؛ فإنه من الضرورى أن تتكامل وتتحد كل

---

(١) مدرسة اقتصادية ألمانية أدخل أصحابها نظام الغرف التجارية لأول مرة .

ميادين المعرفة المتصلة بالمجتمع لأنها كلها تنبع وتصب فى معين واحد هو الحقل الاجتماعى .

٢ – لا يمكن اعتبار أى فرع من فروع الدراسات الاجتماعية مستقلا فى ذاته فكل منها يتصل بغيره ؛ إذ لا يمكن وضع حد فاصل بين التجارب الإنسانية فى محيط المجتمع والعلاقات المتبادلة بين الأفراد .

٣ – إن علم الاجتماع يهدف إلى غرضين أساسيين أولهما الوصول إلى تقرير دقيق للقيم الاجتماعية ومبلغ تطورها وارتقائها ؛ وثانيهما الوصول إلى نظم اجتماعية أكثر مطابقة لروح العصر وأكثر تحقيقاً للعدالة الاجتماعية .

٦ – الكتاب السادس : بين عصرين : من الرأسمالية إلى الديمقراطية ونشره عام ١٩١٣ «Beetwen Eras : From Capitalism to Democracy.» ويعتبره النقاد من أعظم الكتب التى نشرت فى أمريكا . حلل فيه النظام الرأسمالى ونقده وكان متأثراً فى هذا الصدد بأساتذته (شافل وشمولر وفبلن) واتجه فى تحليله إلى موقف قريب من النظرية الاشتراكية فاعتبر أن الطبيعة والعمل هما العاملان الوحيدان والقوتان المؤثرتان فى عملية الإنتاج . ونعى على الرأسماليين موقفهم فى الدورة الاقتصادية ؛ وأظهر الإفلاس الأخلاقى لاقتصاديات الربح والفائدة وهاجم بكل قوة مبدأ وراثة الثروات ووصف رأس المال بأنه قوة جمعية ولا يصح أن تكون قوة فردية مركزة فى يدبضعة أفراد . وفند التصورات الوهمية .. التى ترتكز عليها نظرية الحق المطلق فى الملكية الفردية لاسيما وأن نظام الملكية الفردية كان هو حجر الزاوية فى نظم أمريكا السياسية والاقتصادية .

وشرح فى هذا الكتاب وجهة نظره فى إعادة بناء الهيكل الاقتصادى ووضحت فكرته فى الاقتصاد الموجه تحت إشراف الدولة . إذ يجب أن يقوم نظام اقتصادى جديد يحل محل اقتصاديات الربح ويهدف إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية والإنعاش الاجتماعى لمختلف الطبقات . ويجب إعادة النظر فى تشريعات الوراثة وتحديدها بكل قوة . ويجب أن ينال « العمل » قسطه العادل ونصيبه المعقول فى السيطرة على المشروعات الاقتصادية وفى توجيه السياسة الاجتماعية .

ويشبه كثير من النقاد هذا الكتاب بجمهورية أفلاطون من حيث نزاهة القصد

والرغبة فى تحقيق العدالة الاجتماعية و إنصاف الطبقات الكادحة والفقيرة . وقد وضحت كل هذه المعانى فى مقال آخر نشره (سمول) فى أخريات أيامه بعنوان « اجتماعيات الربح «The Sociology of Profit»[1] .

٧ – الكتاب السابع : وهو مقال عنوانه « خمسون عاماً لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة . نشره فى مجلة علم الاجتماع الأمريكية عدد مايو ١٩١٦ .

«Fifty Years of Sociology in U.S.A. (1865 — 1915)

ويعتبر هذا البحث مصدراً صحيحاً وحريصاً لتاريخ علم الاجتماع فى أمريكا ولاسيما فى صورة الأكاديمية . ويتضمن مادة غنية عن حياة العلماء الأمريكيين ومؤلفاتهم وطرقاً من نظرياتهم . كما يتضمن معلومات قيمة عن تطور موضوعات ومناهج العلم وتقدمها . وعرض فى خاتمة مقاله آراءه بصدد مستقبل علم الاجتماع . وقد عاد إلى معالجة هذه النقطة بالذات فى مقال آخر نشره عام ١٩٢٠ « فى منشورات الجمعية الأمريكية للدراسات الاجتماعية[2] » .

الكتاب الثامن : أصول علم الاجتماع ونشره عام ١٩٢٤ . «Origins of sociology»

يدور معظم الكتاب حول مدارس الاجتماع فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وأولى مزيد عنايته إلى دراسة الاتجاهات الألمانية التى كان لها دعائم الفضل فى تشكيل الاجتماع الأمريكى فى المدة من ١٨٠٠ إلى ١٩٠٠ وجاء هذا العرض عملا ممتازاً غير مدافع ؛ لا يضارعه أحد من المؤلفين السابقين والمعاصرين فى الموضوعات التى عالجها فى هذا الكتاب وأهم هذه الموضوعات :

١ – تقدم علم الاجتماع فى ألمانيا أثناء القرن ١٩ بفضل دراسات

«Savigny; Eichhorn; Niebuhr; L. Von Rank; Waitz.

٢ – دراسات اقتصادية تتناول نظام أل «Cameralism» وأثره فى نمو وضعية العلوم الاجتماعية ؛ آدم سمث والمدرسة الاقتصادية الكلاسيكية ؛ تطور الاقتصاديات فى القرن ١٩ ؛ تاريخ الاقتصاد المقارن ، ؛ نظرية العلامة «Karl Knies» فى مبلغ تأثير العوامل الأخلاقية

(1) American Journal of Sociology (January 1925).

(2) Publications of the American Sociological Society.

فى علم الاقتصاد ؛ نظرية أساتذته (شافل وشمولر وفاجنر) ومبلغ اهتمامهم بالإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ؛ نظريات شمولر وترتيسك «Treitschke» فيما يتعلق بتصادم الاتجاهات الفردية والاجتماعية فى المجال السياسى ؛ دراسة نظريات العلامة (فون موهل «Von Mohl» وجهود أتباعه فى تطوير الاتجاه الاجتماعى فى علم السياسة والفن السياسى فى ألمانيا .

٣ – نمو الحركة الاجتماعية فى الولايات المتحدة ومبلغ تأثرها بالمدارس الأوربية وخاصة بالفلسفة الألمانية . ثم الاتجاه القوى نحو أمركة علم الاجتماع لخدمة المطالب العملية وحل مشكلات المجتمع .

وبجانب المؤلفات التى أشرنا إليها كتب سمول مقالات كثيرة فى مجلات وصحف أمريكا ولو أن معظمها أعيد نشره فيما ذكرناه من كتب . وترك بحوثاً أخرى لم تنشر لسوء الحظ أهمها بحث فى « صراع الطبقات » وآخر فى « تاريخ مناهج البحث الاجتماعى فى أمريكا » . وهذه البحوث عبارة عن محاضرات ودروس ألقاها وهو رئيس لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو .

وإذا ألقينا نظرة عامة على مؤلفات (سمول) نجد أنها جميعاً يمكن أن توضع تحت عنوان « تاريخ النظرية الاجتماعية » فقد كان مؤرخاً من الطراز الأول جمع من الحقائق والوثائق ما يعطينا مادة غنية لتاريخ علم الاجتماع ولاسيما المدارس الاجتماعية الألمانية . ويكاد ينفرد (سمول) بأنه أول من نقل بعمق ودقة تراث الألمان الاجتماعى إلى أمريكا وأوضح مبلغ تأثر الأمريكان بهذا التراث العميق .

ويؤخذ على (سمول) مآخذ لها اعتبارها منها أنه كان كثير التكرار لآرائه يناقشها فى أكثر من موضع وبأسلوب مهوش ؛ وكان غير منظم تعوزه العقلية التأليفية فقد جاءت كتبه عبارة عن محاضراته ومناقشاته فى قاعات الدرس . وكان ينشرها بدون إعادة تحريرها ومراجعتها . هذا إلى أن أسلوبه كان موضع النقد : يبدو مهوشاً وغامضاً فى كثير من المواضع ؛ ويبدو غير منطقى تعوزه طرق الاستدلال والتسلسل المنطقى فى مواقف كثيرة . وكان فوق ذلك ضعيف الحجة بالرغم من ادعائه أنه أستاذ متخصص فى مناهج البحث . غير أن

هذه الانتقادات الجزئية لا تقلل من الثروة العلمية التى قدمها (سمول) لرواد علم الاجتماع[1] .

٥ – ماك إيفر Mac Iver :

إسكتلندى المولد والنشأة ؛ وإنجليزى التربية والثقافة ؛ وأمريكى الجنسية . ولد عام ١٨٨٢ وحصل على درجة الماجستير من جامعة أدنبرة عام ١٩٠٣ وهو العام الذى توفى فيه هربرت سبنسر . وهذا يدلنا على أنه من علماء الرعيل الأول الذين أسهموا فى المساجلات الفلسفية المتصلة باستقلال العلوم الإنسانية وتعيين مراكز بعضها من البعض الآخر : فلاشك أن أخبار هذه المساجلات قد وصلت إليه إن لم يكن قد أسهم فيها فعلا . وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد عام ١٩١٥ وانتقل بعد ذلك إلى أمريكا حيث حصل على درجات علمية متعددة من جامعات « كولومبيا وهارفارد وييل » وشغل كراسى الأستاذية فى علوم السياسة والاجتماع والفلسفة السياسية فى عدة جامعات أمريكية . وشغل فترة طويلة أستاذ كرسى الفلسفة السياسية والاجتماعية بجامعة كولومبيا . وهو عضو فى هيئات علمية كثيرة .

وضع مؤلفات جليلة الشأن أهمها : الجماعة المحلية : علم الاجتماع ، المجتمع تركيبه وتغيراته ، السببية الاجتماعية . وألف بالاشتراك مع العلامة شارل بيج كتاباً عنوانه « المجتمع : مقدمة تحليلية[2] . عالج فى ثنايا هذه المؤلفات طائفة من النظريات الاجتماعية الهامة وألمح إلى وجهات نظر لا تخلو من أصالة وعمق . وإلى القارئ أهم الموضوعات التى عالجها :

أولا – المصطلحات الاجتماعية :

اهتم « ماك إيفر » بمشكلة الترمينولوجيا «Terminology» فى علم الاجتماع لأنه يرى أن هذا العلم كغيره من فروع المعرفة الإنسانية لابد أن تكون له مصطلحاته الخاصة ومفاهيمه المحددة . ولذلك ينبغى على علماء الاجتماع أن يضعوا ثبت المصطلحات ؛

(1) Barnes : An Introdoctionto the history of Sociology p.777 sqq.

(2) The Community; Sociology; Society : Its Structiure and change; Social Causation. Society; An Introductory Analysis.

وقد ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور على عيسى أستاذ الاجتماع بجامعة الإسكندرية .

وينبغي على طلاب العلم أن يروضوا أنفسهم على استخدام مفاهيم العلم ومصطلحاته فى أوضاعها الصحيحة بعيداً عن اللبس والغموض اللغوى حتى لا تضطرب القضايا العلمية ويتعذر الوصول إلى المبادئ الكلية العامة .

ومما يزيد صعوبة تحديد المفاهيم الاجتماعية ؛ أن معظمها مستمد من التعبيرات الشعبية الدارجة ومن المترادفات التى يكثر استعمالها فى الحياة اليومية . ومن البديهى أن وفاء هذه المصطلحات بمدركاتها العلمية ومدى قابليتها للاستساغة العلمية ؛ ومبلغ أدائها للمعانى المقصودة ؛ أمور لابد أن تختلف باختلاف العلماء والباحثين فى وجهات النظر وفى المران العلمى وقوة الحجة والمنطق والتمكن من حقائق العلم . ولذلك فإن الواجب العلمى يقتضينا الاتفاق على المدلولات العلمية التى نستخدمها حتى لا تضطرب أساليبنا فى المناقشة وتحليل الحقائق ويتعذر علينا أن نتلاقى فى تقارب فكرى بصدد هذه المصطلحات .

واهتم ماك إيفر بتحليل المصطلحات الأساسية الآتية :

١ — المجتمع «Socity» وهو ذلك النطاق العام للعلاقات الاجتماعية التى تقوم بين مجموعة من الأفراد . لأن الأفراد فطروا تلقائياً على أن يخلقوا نظاماً من شأنه أن يوجه سلوكهم ويضبطه ؛ ويطلق نشاطهم ويحده ؛ ويضع لهم مقاييس هذا السلوك والنشاط . إن هذا النظام هو المجتمع ؛ إنه « نسق » مكون من العرف والإجراءات المرسومة والمحرمة ؛ إنه النسيج المكون من العلاقات الاجتماعية المعقدة والمستمرة فى التفاعل . ومن أخص صفاته :

(ا) إنه لا يثبت على حال وذلك لدوام تفاعل العلاقات الاجتماعية وتعقدها وقابليتها للتغير المستمر واختلاف مواقف الأفراد بصددها .

(ب) انطواؤه على فكرتى التشابه والتباين وذلك لأن الإدراك المتبادل لفكرة الانتماء إلى « المجتمع » لا يمكن أن تتحقق إذا لم توجد المشابهة أو ما يسمى « بغريزة الحس النوعى » بين أفراده . وكذلك لابد أن تتحقق فكرة « التباين » فلو كان الأفراد جميعاً متشابهين ؛ تضاءلت علاقاتهم الاجتماعية حتى تصير كعلاقات مجتمعات النمل والنحل . وفى مثل هذه الحالة تقل مظاهر الأخذ والعطاء وتفاعل الأحاسيس والمشاعر بين الأفراد .

٢ — الجماعة المحلية Çommunity وهى عبارة عن جماعة من الأفراد يقطنون بيئة معينة

قد تكون ضيقة النطاق كالقرية أو الحى أو المدينة وقد يتسع نطاقها فتشمل أمه بأسرها. وأهم خاصة تميزهم أنهم لا يحققون مصالحهم الخاصة فحسب بل يشتركون أكثر من ذلك فى المظاهر الأساسية للحياة المشتركة . بحيث يشعر الفرد أن وجوده وحياته بأسرها متحققة داخل هذه الدائرة . وبذلك تتميز الجماعة المحلية عن غيرها من الجماعات . فمثلا لا يستطيع الفرد أن يحيا حياته كاملة داخل مؤسسة تجارية أو دينية بينما يستطيع أن يفعل ذلك فى داخل قبيلته أو مدينته وعلى ذلك « فالصفة الأساسية للجماعة المحلية هى أن كل علاقات الفرد الاجتماعية يمكن أن توجد فى داخلها » هذا ؛ وترتكز الجماعة المحلية على دعامتين : الدائرة المكانية ؛ والعواطف الاجتماعية المعبرة عن شخصية الجماعة .

وتختلف الجماعات المحلية اتساعاً وضيقاً ؛ كما تختلف من حيث مقدرتها على الاكتفاء الذاتى فقديماً كانت الجماعات المحلية البدائية أكثر اكتفاء بذاتها من جماعات اليوم التى تقوم على التبادل الاقتصادى من جهة والارتباط السياسى المتبادل مع غيرها من جهة أخرى ، وليس لجماعة محلية معاصرة حوائط تحدها وتفصل بينها وبين غيرها مهما حاول حكام أية دولة أن يقيموا ستاراً حديدياً حولها . والملاحظ أن جماعاتنا المحلية المعاصرة موجودة فى داخل جماعات محلية أكبر منها حجماً ونطاقاً . فالقرية فى داخل مدينة ؛ والمدينة فى داخل إقليم ؛ والإقليم فى داخل أمة ؛ والأمة فى داخل الجماعة العالمية . وهى فكرة آخذة فى النمو والازدهار لارتقاء المفاهيم السياسية المعاصرة .

٣ – الجماعة أو الزمرة «Group» وهى عبارة عن تشكيلات جماعية ترتبط فيما بينها بعلاقات مميزة . وذلك مثل الطبقة الاجتماعية ؛ والجيرة وروابط الصداقة وفرق الألعاب الرياضية وما إليها . والغرض الأساسى الذى ترمى إليه هذه « الزمر » هو تأدية وظائف معينة ومحددة .

ثانياً – العلاقات الاجتماعية :

يقول ماك إيفر إن دراسة العلاقات الاجتماعية هى أهم موضوعات البحث الاجتماعى . بل إن علم الاجتماع فى نظره هو علم العلاقات الاجتماعية ومجموع هذه العلاقات هو المجتمع ذاته . وتتطلب هذه الدراسة الوقوف على حقائق العلوم الاجتماعية التى تتصل من قريب أو بعيد بعلم الاجتماع والتى تدرس مظاهر النشاط الإنسانى . وكذلك

نراه يهتم بتحديد العلاقة بين علم الاجتماع وطائفة كبيرة من العلوم الاجتماعية . فالأنثروبولوجيا تدرس مقومات الإنسان وحرفه الأولى ووسائله المادية التى استعان بها منذ فجر الإنسانية وتدرس أساطيره وخرافاته ومعتقداته وتصوراته الروحية . والاقتصاد يدرس الإنسان بوصفه ساعياً إلى جمع الثروة ونازعاً إلى إنفاقها ويدرس العلاقة بين الثروة ومبلغ تحقيق الرفاهية بالنسبة للفرد والمجتمع والتاريخ يدرس حوليات الإنسانية وسجلاتها ويحلل ما تنطوى عليه من حوادث . وعلم النفس يدرس مظاهر سلوك الفرد ومبلغ استجابته للبيئة وانفعاله بظروفها . أما علم الاجتماع فهو وحده الذى يدرس العلاقات فى ذاتها . فكل علم من العلوم التى أشرنا اليها يتميز بالموضوع الذى يتخذه محوراً لاهتمامه ؛ أما علم الاجتماع فإنه ينفرد بالغاية الكلية التى يرمى إليها . فنحن لا نهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية لكونها اقتصادية أو سياسية أو دينية ولكن لأنها ؛ أولا وقبل كل شىء ؛ اجتماعية . ولتوضيح هذه النقطة يقول (ماك إيفر) إذا التقى شخصان فى سوق اقتصادية ؛ فإنه من الخطأ اعتبارهما مجرد شخصين تربطهما رابطة اقتصادية ؛ إنهما فى الواقع شخصان اجتماعيان ومقدمان على علاقات ليست من طبيعة اقتصادية فحسب . لأن حياة الأفراد متعددة الجوانب : فيها الجانب الاقتصادى والقانونى والأخلاقى والاجتماعى ؛ بيد أن الجانب الاجتماعى هو الذى يؤلف بينها جميعاً . وما المجتمع الا ذلك الكل المعقد الذى ينتظم مجمل هذه العلاقات المتبادلة بين أفراده . ولا سبيل الى معرفة هذا الكل الهائل إلا بمعرفة العلوم الإنسانية جميعها.

هذا ؛ ويرى (ماك إيفر) أننا فى دراستنا للعلاقات الاجتماعية لا يمكننا أن نفصل بين الجانب السيكلوجى والجانب الاجتماعى . فعند ما ندرس طبيعة الأفراد من حيث كونهم كائنات ذات سلوك ووعى فردى ؛ فإننا ندرس ذلك من الناحية السيكلوجية . وحينما ندرس العلاقات المتبادلة بينهم ؛ فإننا ندرس ذلك اجتماعياً . ولما كنا لا نستطيع أن نفهم الأفراد منفصلين عن علاقتهم المتبادلة ؛ ولا نستطيع كذلك أن نفهم أو نفصل العلاقات عن الأطراف المشتركة فيها ؛ فإننا لا نستطيع أن نفصل بين علمى النفس والاجتماع ؛ لأنهما يدرسان جوانب مختلفة لحقيقة واحدة لا تقبل التجزئه . وهذه الاعتبارات تفرض علينا نحن علماء الاجتماع أن نكون طلاب علم نفس بالإضافة إلى عملنا حينما ندرس العلاقات الاجتماعية ؛ كما أن الاعتبارات نفسها تفرض على علماء النفس أن يكونوا طلاب علم الاجتماع بطريقة تلقائية حينما يدرسون سيكلوجية الأفراد . وهذا التداخل ينتهى فى آخر تحليله

إلى أن الفرق بين علم النفس وعلم الاجتماع هو فرق يتعلق بالناحية التى تستأثر بدراستنا فى العلاقات والحقائق الاجتماعية .

ثالثاً — الإنسان والبيئة :

من الموضوعات التى استأثرت بعناية العلامة « ماك إيفر » هى العلاقات الضرورية التى تربط الإنسان بالبيئة ومبلغ انفعاله بظروفها وخضوعه لأحكامها .

يقول ماك إيفر إننا إذا وضعنا بذرة فى الأرض دفعت بجذورها فى باطن الأرض وبفروعها فى الهواء . ومعنى ذلك تنشئ علاقات معقدة كل التعقيد مع البيئة لدرجة أننا إذا نزعناها من التربة هلكت فوراً . وهكذا شأن الكائنات الحية الأخرى فإنها لا تقل اعتماداً على البيئة أو تجاوباً معها . فالإنسان ؛ بالرغم من استطاعته أن ينتقل من بيئة لأخرى ويغير من أحوال البيئة وفقاً لأغراضه ؛ فإنه لا يستطيع أن يفلت من أحكام بيئته ومن الصلات الوثيقة التى تربطه بها .

وتتداخل الحياة والبيئة بعضها فى بعض بدرجة قوية . فكل تغيير يطرأ على الكائن الحى من شأنه أن يحدث تغييراً فى صلته بالبيئة ؛ وكل تغيير فى البيئة يستتبع تغييراً فى استجابة الكائن الحى لها . أى أن كل اختلاف فى بيئتنا ينطوى على قدر من الاختلاف فى عوائدنا وأساليب حياتنا . ومن جهة أخرى فإن هذه العادات والأساليب تهيىء لنا فرصاً للتكيف كلما اختلفت البيئة التى نعيش فيها . وهذا التكيف ضرورى لتحقيق « التوازن المتحرك » بين البيئة والفرد .

هذا ، وكانت دراسة العلاقة بين البيئة والظواهر الاجتماعية مثار الاهتمام بين علماء أمريكا وانقسموا بصددها إلى مدرستين . المدرسة الأيكولوجية « Ecological » والمدرسة الإقليمية «Rigional» .

وكان من أنصار المدرسة الأولى « بارك وبرجس » واهتم هؤلاء بدراسة الأيكولوجيا وخاصة الظواهر الاجتماعية والثقافية المتعلقة بمناطق التجمعات الحضرية المختلفة . واهتموا كذلك بدراسة الآثار الاجتماعية فى الدائرة المحلية وتوسعوا فى دراسة العلاقات القائمة من تنافس وتعاون ومظاهر التخصص وتوزيع الاختصاصات والمركزية واللامركزية وخواص التركيب الاجتماعى سواء فى الريف أو فى المدن .

أما المدرسة الثانية وهى المدرسة الإقليمية فأشهر أنصارها العلامة « هورد أودم » وزملاؤه من جامعة « نورث كارولينا » قسم هؤلاء الولايات المتحدة الى أقاليم طبيعية لكل منها له أحواله الجغرافية والاجتماعية . وهذه الأقسام تتكامل فيما بينها بحيث ينشأ عنها أسلوب متوافق ومتزن للحياة الاجتماعية . أى أن هذا التقسيم الإقليمى يهدف إلى تحقيق التوازن والتكامل بين الظروف البيئية والاجتماعية لتنمية حياة الجماعة بالإجمال .

والغرض من هذه الدراسات الأكلوجية سواء الخاصة أو الإقليمية هو كشف مبلغ تعقد البيئة ، ومبلغ تغلغلها فى حياة الجماعات والزمر الاجتماعية ، وإمكان تفسير الفروق بين الأفراد والجماعات على أساس الفروق البيئية .

ويعرض (ماك إيفر) لمظاهر التكيف بين الفرد والبيئة وهى ثلاثة :

١ — التكيف الطبيعى : ويحدث بصفة تلقائية شئنا أم لم نشأ ، مستقلا عن تدخلنا وعن غاياتنا . وما القوة والضعف والصحة والمرض إلا تعبيرات للدلالة عن مبلغ تكيفنا الطبيعى . وهى جميعا أحوال تفرضها الطبيعة علينا حيثما وجدنا حتى إن الموت نفسه لا يعدو أن يكون مظهراً أخيراً للتكيف الطبيعى . وبالرغم من خضوع الإنسان لهذا النوع من التكيف ، فإنه مهتم جداً بالمشكلات المرتبطة به مثل الموت والصحة والمرض والتغيرات الجسمانية وحالة التغذية ووسائل تحسين النسل والصحة وإطالة العمر . وتدل التجارب على اطراد نجاح الإنسان فى مسعاه .

٢ — التكيف البيولوجى : ويقصد به ماك إيفر التوافق الحيوى بين البيئة والإنسان وأثره فى تأدية الإنسان لوظائفه . فكما أن السمك مثلا متكيف مع البيئة البحرية ، والحيوان المفترس متكيف مع حياة الغابة ، فكذلك ينبغى أن يكون هناك تكيف بيولوجى بين البيئة والإنسان لأن عدم التكيف أو « سوء التكيف » لا يسمح للكائن الحى بأن يؤدى وظائفه كاملة .

٣ — التكيف الاجتماعى : ويعتبره (ماك إيفر) امتداداً للتكيف البيولوجى ويمتاز بأنه خاضع لشروط وموجه نحو خلق قيم معينة . وهذا التكيف يؤدى بنا أن نختار بين أمرين : إما البحث عن البيئة التى تلائمنا ، أو خلق مثل هذه البيئة . وقد استطاع الإنسان بفضل ذكائه ومجهوداته المتواصلة أن يختار بيئته ويعدل فيها بحيث يؤدى تكيفه بها إلى تحقيق وظائفه وغاياته .

وللبيئة التى صنعها الإنسان مظهران : الأول خارجى والثانى داخلى .

المظهر الخارجى – يقصد بالبيئة الخارجية التعديلات الفيزيقية للعوامل الطبيعية مثل بناء المساكن وتخطيط المدن والقرى ووسائل النقل والمواصلات وأدوات الحضارة وأجهزتها . ويدخل فى هذا الصدد ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا « مظاهر الثقافة المادية » وتقاوم هذه البيئة أجيالا عديدة حتى إذا هلك المجتمع نفسه . والدليل على ذلك تلك الآثار المختلفة والرواسب الباقية من مظاهر الحضارات القديمة التى اندثرت كالحضارة المصرية القديمة مثلا .

المظهر الداخلى – ويقصد بالبيئة الداخلية المجتمع نفسه وما ينطوى عليه من تنظيمات وقواعد وعرف وتقاليد وعادات . أو بعبارة أخرى كل ما نسميه « بالتراث الاجتماعى » . وبالرغم من أن مقومات هذه البيئة ليست مفروضة بالقوة (بقوة القانون الطبيعى) فإن الفرد لا يستطيع أن يفلت منها لأنه تكيف بها وأعد نفسه للحياة داخلها .

فالبيئة العامة أو الشاملة التى يعيش فيها الإنسان تتضمن بيئة خارجية يعدلها الإنسان بطرق مختلفة ؛ وهذا التعديل يتم على نطاق واسع بفضل تقدم الحضارة الحديثة . وبيئة داخلية أو اجتماعية يتكيف معها الإنسان بالوعى والتعود والمران . وهذان المظهران يتفاعلان باستمرار ويؤثر كل منهما فى الآخر . وذلك يرجع إلى أن الإنسان دائب السعى لتحسين ظروف حياته ومعيشته وإسعاد نفسه وبنى جنسه . وعن طريق جهوده المتواصلة وبفضل استخدام ذكائه يعمل على تغيير ما يستطيع تغييره من ظروف بيئتيه : الداخلية والخارجية .

رابعاً – الضبط الاجتماعى :

اهتم (ماك إيفر) بدراسة موضوع الضبط الاجتماعى لأنه من أقوى المشكلات الاجتماعية الدائمة التى يتعين على علم الاجتماع أن يحلها . ويقصد بالضبط الاجتماعى الطريقة التى يحافظ بها المجتمع على مقوماته ويحمى أنظمته . فهو عبارة عن تنظيم العلاقات بين النظام الاجتماعى والأفراد الخاضعين له . وبمعنى آخر تنظيم العلاقة بين الجزء والكل وبين الوحدة والمجموع .

ولدراسة الضبط الاجتماعى ينبغى أن تتقصى جميع الوسائل التى بفضلها يحكم المجتمع أفراده وينظم سلوكهم ومعايير هذا السلوك وذلك للحرص على النظام العام المرسوم . وبجانب

هذه الوسائل هناك أدوات لأحكام الضبط المنشود منها الأسرة وما تنطوى عليه من سلطة أبوية ؛ والجماعة المحلية والتزاماتها ؛ والطبقة الاجتماعية وماعداها من الوحدات الاجتماعية المتعلقة بالتركيب الاجتماعى .

والضبط الاجتماعى يختلف عن غيره من ألوان السلطة القانونية ؛ ومع ذلك فهو ينطوى على قوة لا تقل شأناً عن قوة القانون . وهذا يدلنا على أن هناك قوانين اجتماعية ملزمة أسوة بالقوانين الطبيعية الوضعية وكشف هذه القوانين هو وظيفة عالم الاجتماع . ولا يقل علم الاجتماع فى هذا الشأن عن غيره من العلوم . لأن كل شىء فى الوجود يخضع للقانون ؛ والغرض من البحث العلمى المعاصر فى أى ميدان من ميادين العلوم هو الوصول إلى القوانين التى تحكم الأشياء فى قطاع معين . فعالم الطبيعة مثلا يهتم بقوانين الجاذبية والحرارة والضغط . ويهتم عالم الكيمياء بخواص ومعادلات التفاعل الكيميائى . وليس عالم الاجتماع أقل منهم اهتماماً فيما يتعلق بكشف القوانين الاجتماعية .

غير أن تصرفات الأفراد ومظاهر سلوكهم لا يمكن أن تنطوى على طاعة آلية لا انحراف فيها عن القواعد المقررة والأوضاع المرعية . ومن ثم يتعين على المجتمع أن يمارس درجة ما من الضغط والضبط على الأفراد الذين يحاولون الخروج والحيد عما يرسمه المجتمع من قوالب وأوضاع .

وينطوى هذا الضبط على ما يسمى « بالجزاء الاجتماعى » . وهذا الجزاء هو عبارة عن العقوبة التى يفرضها المجتمع على كل من يخالف قواعده ووصاياه . ولكل نوع من القواعد جزاءاته الخاصة . فقد يكون حرمان المخطئ من الامتيازات التى يستمتع بها ؛ أو حرمانه من بعض حقوقه ؛ أو غرامة توقع عليه . وقد يكون حرمانه من حريته (وهو السجن) أو حرمانه من الحياة (ويقصد بذلك الإعدام) . وعلى العموم تختلف هذه الجزاءات باختلاف قواعد السلوك المعمول بها فى الوحدة الاجتماعية التى ينتمى إليها الأفراد . وأهم هذه القواعد فى نظره ما يأتى :

١ — قواعد السلوك فى الجمعيات والهيئات . ومن أمثلة ذلك معاقبة من يخالف قواعد السلوك فى ناد بحرمانه من العضوية ؛ والعامل الذى يخالف قواعد السلوك فى المصنع يطرد أو توقع عليه غرامة ، والمسيحى الذى يخالف تعاليم الكنيسة يعانى مرارة الحرمان الكنسى ؛ والطبيب أو المحامى الذى يخل بواجبات مهنته يفقد حق مزاولتها ويتعرض للجزاء القانونى .

٢ ــ قواعد السلوك الخاصة بالجماعة المحلية ومن أمثلة ذلك أن الشخص الذى يخرج عن العادات والتقاليد يرمى بالتحقير الجمعى ؛ وقد يحكم عليه المجتمع أحكاماً أخرى أشد قسوة كالحرمان من الاشتراك فى طقوس الجماعة أو عدم التعامل معه ، أو الطرد من حظيرتها .

٣ ــ القواعد الخلقية ــ ويقصد بها ماك إيفر مجموعة الأوامر والنواهى التى يتخذها ضمير الفرد معياراً للحكم على الأفعال وتمييز الصواب من الخطأ والخير من الشر . ويقول « ماك إيفر» إن هذه القواعد الفردية ، مستقلة عن قوالب المجتمع وقد تتعارض معها . ويضرب لذلك المثل الآتى : قد يتعمد طبيب إعدام طفل حديث الولادة لأنه مشوه الخلقة أو ناقص التركيب وقد يكون بهذا العمل قد خرق قواعد السلوك الخلقية الخاصة بالجماعة التى ينتمى إليها الطفل وقد خالف القانون أيضاً ، غير أنه فى قرارة نفسه يشعر بأنه تصرف تصرفاً سليما من الناحية الخلقية كما يفهمها ويتصورها .

٤ ــ التشريعات القانونية وهى قوانين الدولة وما تنطوى عليه من قوة الأداء والإلزام . فالدولة باعتبارها صاحبة الولاية على الصالح العام تتدخل ، بهذه الصفة ، لتقرير ماينبغى عمله أو الإقلاع عنه بقوة القانون وبوسائلها التنفيذية الأخرى :

هذه هى بعض آراء العلامة ماك إيفر . وهى فى مجموعها لاترتفع عن المستوى العادى لأساتذة الاجتماع ، ولا تصل فى أصالتها إلى درجة « الفلاسفة الكبار » ويؤخذ عليه أنه كان مدرسيًّا ، يكثر من ضرب الأمثلة ومناقشة الجزئيات ويستطرد فى عرض المسائل بالتفصيل مما أفقد بعض مواقفه قوة التحليل وعمق الفكرة ودقة المنهج .

٦ ــ المدرسة النفسية الاجتماعية :

تأثر كثير من رواد الحركة العلمية الاجتماعية فى أمريكا بالنظريات والاتجاهات السيكلوجية الزاحفة إلى بلادهم مع الفكر الغربى . ويؤلف هؤلاء الرواد فى مجموعهم لونين متقاربين فى نطاق الدراسات النفسية وهما علم النفس الاجتماعى وعلم النفس التحليلى .

وإلى القارىء كلمة موجزة عن أهم هؤلاء الرواد :

١ ــ فرانكلين جدنجز «F.H. Giddings» ١٨٥٥ ــ ١٩٣١ :

عرض فى كتابه « مبادىء علم الاجتماع » فكرة جديدة هى « الشعور بالنوع

«Consciousness of Kind» باعتبارها الدعامة الجوهرية التى ترتكز عليها طبيعة المجتمع البشرى وطبيعة علاقات أفراده . فالمجتمع فى نظره حقيقة نفسية وتسود أفراده علاقات متبادلة من طبيعة نفسية وكل فرد فيه مزود تلقائيًا بشعور متبادل نحو النوع أى أنه يدرك تلقائيًا أن كل أفراد بنى جنسه يشاركونه المشاعر ذاتها وتقع الأحاسيس والتيارات السيكلوجية فيهم بقوة تكاد تكون متعادلة . وتقترب هذه الفكرة من نظرية « سمنر » فى الجماعات الداخلية «Engroups» التى تكلمنا عنها فيما سبق .

ويتخذ « جدنجز »[1] من الفكرة المشار إليها وهى فكرة «الشعور بالنوع » أساساً لتحديد الطبقات والفئات الاجتماعية باعتبار أن لكل طبقة أو فئة اجتماعية وجدانها الطبقى الخاص والمشاعر المميزة المتبادلة بين أفراد الطبقة أو الفئة .

ويضيف « جدنجز »[2] إلى فكرة « الشعور بالنوع » أن العلاقات النفسية المتبادلة بين الأفراد فى تفاعلاتها المستمرة، تنتج عواطف وانفعالات نفسية اجتماعية أكثر تعقيداً مثل المشاركات الوجدانية والتقليد والترديد والتعاطف والاتحاد .. ويسمى هذه الانفعالات « الأسس النفسية للتكامل الإنسانى » وبفضل تأصل هذه العوامل ينشأ فى الحياة الاجتماعية ما يمكن تسميته « بروح الجماعة أو العقل الجمعى «Social Mind» وفى هذا الصدد يقترب « جدنجز » من دراسات المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع .

ويبدو اقترابه من « الوضعية الاجتماعية » فى كتابه « عناصر علم الاجتماع » حينما استعمل لفظ «Socius» وهو لفظ لاتينى الأصل معناه « الجمعية » واعتبر هذا المفهوم « الجمعية » وحدة البحث فى علم الاجتماع . ويشرح ذلك بأن الفرد مزود تلقائيًا « بالروح الجمعية » ، فهو ليس مجرد كائن عضوى أو كائن نفسى واع ؛ ولكنه فوق ذلك كائن اجتماعى يرتبط مع غيره بعلاقات تفوق طبيعته الحيوية والسيكلوجية (فقد يكون زميلا فى عمل أو زميلا فى سفر أو سيداً أو مسوداً متعاوناً أو متنافساً) ووظيفة علم الاجتماع هى دراسة هذه الروح الجمعية ووجوه نشاطها وانطباعاتها فى ذوات الأفراد .

وزاد اقترابه من الوضعية الحديثة فى علم الاجتماع عندما نشر عام ١٩٢٤ « الدراسة

(1) Franklin. H. Giddings; Principles of Sociology.

(2) Franklin. H. Giddings; Elements of Sociology.

العلمية للمجتمع الإنسانى »[١] فقد نادى بضرورة دراسة ظواهر المجتمع دراسة وضعية أى دراسة وصف وشرح وتحليل وضرورة تطبيق المنهج الإحصائى فى هذه الدراسة لأنه أفضل المناهج لكشف حقائق الاجتماع وقد سار تلميذه « المر «Elmer» على هذه المناهج فى دراساته الاجتماعية وطبقها بنجاح فى كتابه « الإحصاءات الاجتماعية »[٢] .

٢ – شارلس كولى «Charles, H. Cooley» ١٨٦٤ – ١٩٢٩ :

تتلمذ على نظريات تارد وأتباعه . واتخذ الظواهر السيكولوجية أساساً لتفسير طبيعة المجتمع وطبيعة العلاقات والنظم الاجتماعية . فالمجتمع مركب عضوى نفسى وهو يطبع أفراده على هذه الطبيعة النفسية لأن الفرد لا يولد مزوداً بالطبيعة الإنسانية ولكنه يروض ويحصل عليها شيئا فشيئاً من المجتمع . ولذلك فإن كلمتى « مجتمع وفرد » فى نظره لا يعنيان لفظين أو مفهومين منفصلين ، فهما حقيقة نفسية واحدة . ويمكن تشبيه الفرد والمجتمع بإنسان ينظر إلى صورته فى مرآة «Glass self» «Looking» «Soi en miroir»[٣] حقاً إنه يوجد بالفطرة شعور غريزى بالذات «Self Feeling» ولكن لا يمكن للإنسان أن يكون شاعراً بذاته «Self Consciousness» إلا إذا أصبح ذاتاً اجتماعية «Social Self» فالمجتمع هو الذى يضفى على الفرد الشعور الحقيقى بالذات وبفضل الحياة الاجتماعية تتحول النزعة الفطرية المتعلقة بالذات إلى تأكيد اجتماعى لذات الفرد. وبذلك يصل كولى عن طريق تحليل مشاعر الذات ومراحل تطورها إلى نوع من الواقعية الاجتماعية «Realisme Sociologique»[٤] .

ويضرب مثلا : أن الفرد يتصور كيفية ظهوره أمام شخص آخر ، ويتصور مدى الحكم الذى يصدره عليه هذا الآخر . ويرتب على ذلك مشاعر متصلة بقيم معينة : كالعزة والشجاعة والخوف والخجل . ومن ثم يخجل الفرد عندما يتلعثم ويضطرب أمام رجل مخيف أو أمام رجل جسور . وقد يشعر بالقوة أو الكرامة إذا كان موضع التجلة والاحترام من الآخرين .

---

(1) F.H. Giddings : The scientific study of human society.

(2) Elmer; Social statistics.

(3) Charler, H. Cooley; Human Life and the Social Life.

(4) Cuvillir; Manuel de Sociologie.

ومعنى ذلك أن الشعور بالذات يتضمن موقف الذات فى الحياة الاجتماعية من خلال العلاقات التى ينسجها المجتمع حول أفراده. ويذهب « كولى » إلى أبعد من ذلك عندما يعرض فى كتابه « التنظيم الاجتماعى »[1] مفاهيمه التى انتشرت فى الولايات المتحدة وخارجها عن الجماعات الأولية «Primary Groups» والجماعات الثانوية «Secondary Groups» وهذه المفاهيم شبيهة إلى حد كبير بمفاهيم سمنر عن «In — Out groups» والجماعات الأولية تتميز فى نظر كولى بالترابط والتعاون الداخلى والعلاقات المباشرة «وجهاً لوجه» «Face to face» بين أعضائها وذلك مثل ما يحدث فى الأسرة والخلائل وزمر الندماء وحلقات اللعب والجوار وثنائيات المحبين والعشاق ؛ بينما تتميز الجماعات الثانوية بالعلاقات غير المباشرة .

وتتبلور المشاعر النفسية فى نطاق الجماعات الأولى الملتحمة قلبياً فى نوع من الاتحاد أو الإمزاج بين الذوات الفردية (فى الجماعة) فنبيح عن ذلك كل مشترك لدرجة أن الأنا الحقيقية للفرد تجاوز حدود فرديتها ورغباتها الخاصة وتتحد مع الحياة العامة للجماعة وتتمثل الرغبات الجماعية التى تسودها أى أن الفرد ينتقل من مجرد « الأنا » إلى « نحن » ويصبح هذا المفهوم الأخير هو التعبير الصحيح عن الحقيقة الاجتماعية . فالفرد يعيش فى مشاعر الكل وشخصيته تذوب فى شخصية الجماعة، والأنا تتلاشى فى النحن . وعن هذا الطريق تتولد الغيرية وحب الخير والمشاركات الوجدانية والمثل المشتركة ومن ثم يتأصل فى نفوس الأفراد احترام النظام الاجتماعى والقانون والحريات والعدالة . وهذا هو ما تقول به المدرسة الفرنسية الاجتماعية من أن الفرد هو نتاج الحياة الجماعية .

٣ — روس Edward Ross :

يذهب « روس » إلى أن المصالح الفردية هى عوامل الحياة الاجتماعية وأن هذه الحياة هى عبارة عن مجموعة من عمليات التأثير المتبادل بين الأفراد كالتعاون والتنافس والتعارض والتصالح والانعزال والاندماج وما إلى ذلك. وقد عرض فى كتابه «أسس علم الاجتماع»[2] تصنيفاً شاملا للعمليات والعلاقات الاجتماعية المتداخلة مع بعضها البعض والتى يؤدى بعضها إلى البعض الآخر. وأهم هذه العمليات :

---

(1) Charles H. Cooley; Social Organisation.

(2) Ross — Foundations of Sociology.

(أ) العمليات الاجتماعية المصاحبة لنشأة المجتمع واختلاط أفراده وتزاوجهم وتكاثرهم .

(ب) العمليات الاجتماعية الضرورية لقيام النظم واستقرارها وانتشارها . وضغط بصفة خاصة على التنشئة الاجتماعية والتقليد الاجتماعى .

(جـ) نشأة السلطة السياسية وترويض عناصر المجتمع على قبولها .

(د) العمليات المصاحبة للصراع والتنافس على السلطة واتساع نطاق نذر المقاومة وانقسام المجتمع إلى طبقات وهيئات : بعضها يجمعه التعاون لتحقيق غايات مشتركة ، والبعض الآخر تفرقه عوامل الحسد والكراهية والانتهازية والروح الفردية .

وفى نطاق كل عملية من العمليات المشار إليها يعرض طائفة كبيرة من العلاقات المتشابكة والمتفرعة عنها . وقد ناقش العالمان « برجس وبارك «Burgess; Park» هذا التصنيف [1] وأخذا على العلامة (روس) طريقته فى تفريع العمليات وتداخلها وذهبا إلى أنه من الممكن اختصار القائمة الطويلة التى قدمها وإرجاعها إلى أربع عمليات أساسية هى : التنافس والصراع والتكيف والتمثيل. فكل ما ذكره (روس) يمكن أن يندرج تحت هذه العمليات الأساسية [2] .

ويبدو تأثير العلامة (روس) بالنظريات النفسية فى كتابيه : علم النفس الاجتماعى ومبادىء علم الاجتماع [3] .

فى الكتاب الأول ، قارن بين علم النفس الاجتماعى وموضوعه دراسة الميول السيكلوجية السابقة على تكوين الجماعات ، وبين علم الاجتماع النفسى الذى يدرس الحالات النفسية الجماعية (سيكلوجية الجماعات) وهى الدراسة التى سار بها شوطاً بعيداً العلامة الفرنسى « جوستاف لوبون » . وفى الكتاب الثانى تكلم عن الغرائز السيكلوجية — وناقش كثيراً من النظريات التى قيلت فى تفسيرها وأهم الغرائز فى نظره ، المقاتلة ، حب التجمع ، الأبوة ، حب الاستطلاع — وقد ارتبطت بهذه الغرائز السيكلوجية وتولدت عنها ، أربعة غرائز جمعية معقدة وهى : حب التملك والثروة ، السيادة وحب السلطة ، النزعات الدينية ، المعرفة وما يتصل بها — ويبدو أنه لم يكن مقتنعاً بهذه النظرية لأنه لم يعرض لها عندما أعاد طبع كتابه المشار إليه .

---

(1) Burgess; Park — Introduction to the Science of Sociology.

(2) E. Ross — Social Psychology.

(3) E. Roos Principles of Sociology.

٣ – ماكدوجال W. MacDougall ١٨٧١ – ١٩٣٨ :

لمس كثيراً من الموضوعات الاجتماعية فى دراساته السيكلوجية وحللها فى ضوء حقائق علم النفس . ففى كتابه «مقدمة علم النفس الاجتماعى » عرض نظريته فى الغرائز واعتبر الغرائز الأساسية هى المقومات الطبيعية للنفس الإنسانية وهى كذلك الدعائم التى ترتكز عليها الظاهرات الاجتماعية فى طبيعتها ونشأتها ومبلغ تأديتها لوظائفها . فمثلا أرجع ظاهرة التدين إلى غرائز الخوف والخضوع والاستسلام ، وأرجع الظاهرات الاقتصادية إلى غرائز حب التملك والاقتناء ، وأرجع كثافة السكان ونمو المدن إلى غرائز التجمع والمقاتلة ، وأرجع انتشار ظواهر العمران إلى التقليد والمحاكاة والإيحاء وما إليها .

وفى كتابه « العقل الجمعى » يقرر أن المجتمع مزود بحياة عقلية تعلو فوق مجموع الوحدات العقلية لعناصره ، أى أنها قوة مضافة إلى مجموع عقول الأفراد .

هذا ، ويمكننا أن نشير إلى من سبق ذكرهم علماء كثيرين كانوا متأثرين بالدراسات السيكلوجية وهم يحللون حقائق الاجتماع : فمثلا « الود » بلور فكرة ماكدوجال فى روح الجماعة إلى القول بوجود قوى اجتماعية بدلا من الغرائز ، وتنطوى هذه القوى على نوعين من الدوافع الأولى تتمثل فى الرغبات والعواطف والميول ، والثانية تتمثل فى أجهزة التفكير والذكاء والطاقات العقلية التى تعمل لتحقيق مطالب الدوافع الأولى . لأن الميول والرغبات هى القوى المحركة للإنسان فى حياته الاجتماعية ، ووظيفة العقل هو استغلال الإنسان وذكائه فى توجيه وتهذيب وإشباع الميول والرغبات . ومستقبل الفرد وارتقاؤه انما هو مرهون بمبلغ إشراف العقل واستغلال قدراته المفكرة . فالذكاء أداة يستغلها الفرد لتحقيق التوازن الإنسانى والاجتماعى ويبدو أنه استوحى معظم هذه التصورات من « لستر وارد » الذى سبق أن تكلمنا عن نظرياته «السيكلواجتماعية » بالتفصيل[1] ونجد أيضاً العلامة (وتسون «Watson») الذى يذهب إلى أن الظواهر الاجتماعية هى مجرد مظاهر سلوكية . فسلوك الإنسان هو الذى يشكل مانسميه بالأنماط الاجتماعية لأن هذا السلوك هو عبارة عن انفعاله نحو البيئة التى يعيش فيها أو الوضع

William MacDougal — An Introduction to Social Psychology.

William MacDougall — Group Mind.

(1) Charles Ellwood; Principles of Psychosociology.

الذى يواجهه ليتكيف ويتلاءم معه. ونراه يستعمل ألفاظاً لها مفاهيم اجتماعية بدلا من المصطلحات النفسية السائدة . فيستعمل لفظ «Invironment; Situation» ولا يستعمل لفظ مؤثر «Stimulus» ونجد كذلك « جورج ميد «G. Mead» » فى كتابه . « العقل والنفس والمجتمع » يشبه موقف الفرد فى المجتمع « بالذات فى المرآة » متأثراً بدراسات العلامة « كولى » وكأن الفرد شخص آخر ويقوم بدور هذا الآخر «Other» ، ثم ينتقل من مرحلة الآخر إلى ما يسميه مرحلة الآخر المعمم «The generalised other» وفى هذه المرحلة يزداد تكيفه بالبيئة التى تحيط به ويصبح ذاتاً شاعراً بوجوده ، ويتأكد شعوره بالذات فى غمرة التأثيرات الاجتماعية المتبادلة التى هى عبارة عن محاولات الأفراد لكى يصلوا إلى مرحلة « الآخر المعمم »[1] .

وينضم إلى من سبق الإشارة إليهم أنصار مدرسة فرويد فى التحليل النفسى . مثل «إبرام كاردينر «A. Kardiner» فى كتابه « الفرد ومجتمعه»[2] حيث طبق مبادئ التحليل النفسى كما عرضها فرويد على بعض القبائل التى درسها هو ومعاونوه وخاصة (رالف لنتون) وضمنها كتابه « الأساس الثقافى للشخصية »[3] .

ونضيف إلى هذه القائمة أيضاً «جاكوب مورينو Moreno » ومدرسته . ومورينو هو صاحب الاتجاهات القياسية «Sociometry» التى ضمنها كتابه «Who shall survive»

وتتلخص فلسفته فى أن الأفراد خاضعون لضغوط اجتماعية عنيفة بحيث أصبحوا أسرى لها وعبيداً لتوجيهاتها . ولاشك أن هذه الضغوط تقتل فيهم التحرر والقدرة على الابتكار والتجديد ومن ثم تجمد الحياة الاجتماعية وتصاب بالشلل . فالواجب أن نطلق الأفراد ونحررهم من القيود الاجتماعية ونتركهم يتصرفون ويتفاعلون على سليقتهم وبصفة تلقائية وهذا مادعاه إلى أن يسمى كتابه «من الذى سيكتب له البقاء؟» وإجابته على هذا السؤال واضحة. وهو ذلك الفرد المتحرر فى تصرفاته من ضغوط المجتمع ؛ وهو الذى لا يقيم لمثل هذه الضغوط كبير وزن فى علاقاته ومظاهر سلوكه وهذا التحرر يكسبه القدرة على التجديد والابتكار. هذا إلى أن الكبت الاجتماعى يؤدى إلى إصابة الأفراد بالأمراض النفسية العنيفة ولذلك كان

---

(1) George. H. Mead; Mind, Selfl and Society.

(2) Abram Karliner; The Individual and his Society.

(3) Ralph Linton — The Cultural Background of Personality.

« مورينو » ومدرسته يعالجون مرضاهم على غرار فرويد « بالتحليل النفسى » وفق طائفة من الطرق والاختبارات العلمية والعملية التى تؤدى إلى كشف خبايا العلاقات الاجتماعية لا سيما غير السوية منها . وفى ضوء هذا الكشف يمكن علاج الحالات موضع الدراسة . وقد تكلمت عن الطرق والاختبارات (السسيودرامية والسيكودرامية فى كتابى (المدخل إلى علم الاجتماع) وهذه الاختبارات فى مجموعها لا تتناول علاج المريض بوصفه فرداً ، ولكن بوصفه الفرد الاجتماعى فى نسيج علاقاته بالآخرين . وقد ساعدت هذه الطرق والاختبارات الجديدة فى الكشف عن طبيعة بعض العلاقات الاجتماعية ومدى انعكاسها فى نفوس الأفراد ومبلغ ما تمارسه من ضغوط وكبت فى ذواتهم . وأمكن كذلك قياس هذه العلاقات والتعبير عن المسافات الاجتماعية التى تنشئها بين الأفراد والجماعات قياساً كمياً ورياضياً . بيد أن النجاح فى هذا الطريق لا يزال جزئياً سواء بين أنصار التحليل النفسى الخالص أو بين علماء القياس الاجتماعى . ونعلق أمالا كبيرة على ما يبذله بعض الباحثين المحدثين بصدد تطوير هذه الطرق وتعميق الاختبارات القاسية حتى تأتى بأفضل النتائج .